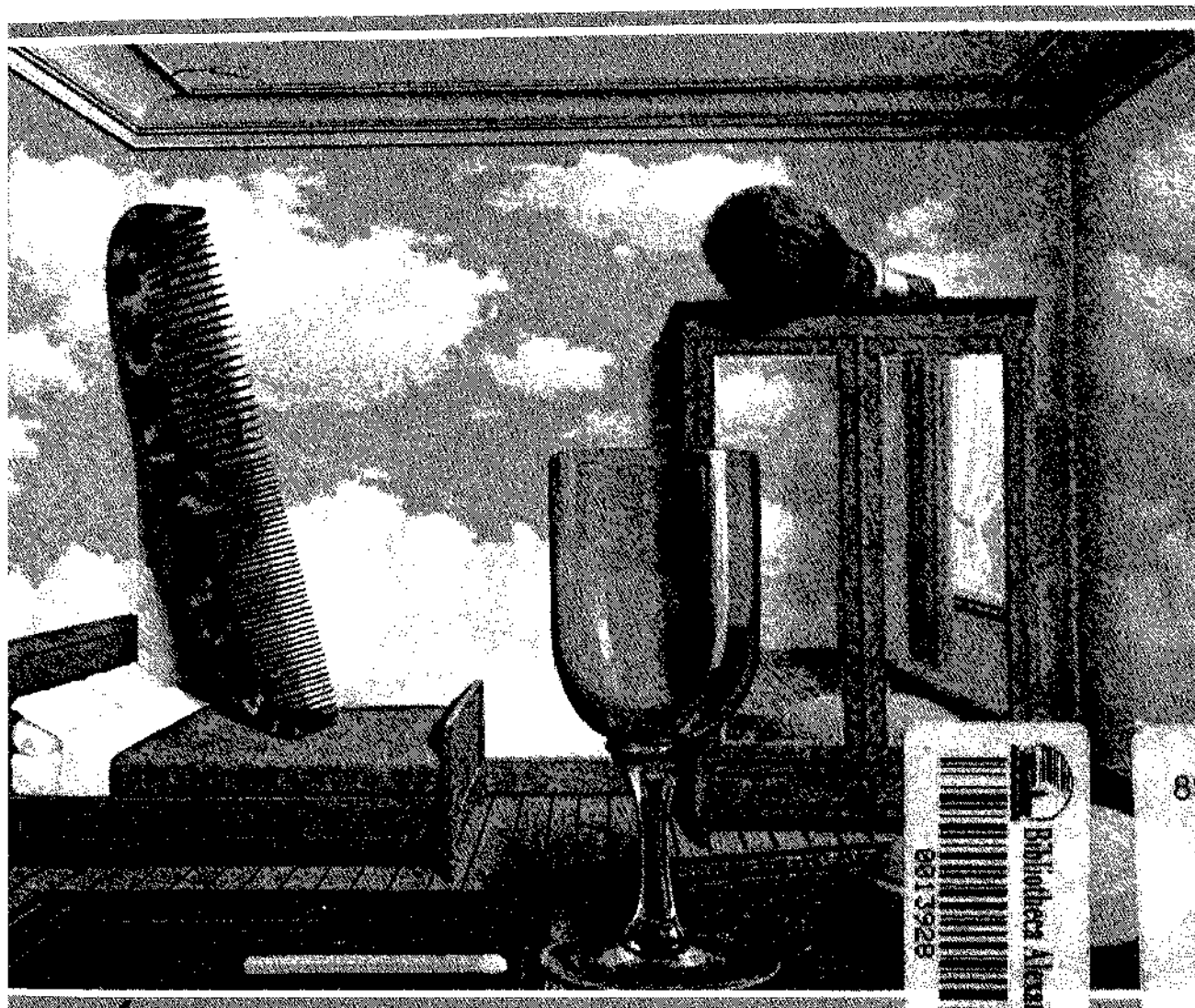


غَداة السَّمان

لا بجر في يَزوت



لا بحر فی بیروت

- لوحة الغلاف الاول للفنان رينيه ماجريت ، رسمها عام ١٩٥٢ واسمها « قيم ذاتية » .
- الخطط للفنان حسين ماجد .
- تنفيذ الغلاف للفنان نبيل البقيلي

غادة السمان

لا بحر في بيروت..

قصص



Donation of the Alexandria Library (GOAL)
Beirut, Lebanon

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
منشورات غادة السمان

بيروت - ص. ب ١٨١٣ ١١
تلفون ٣٠٩٤٧٠ - ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى: تشرين الثاني ١٩٦٣
الطبعة الثانية: تشرين الأول ١٩٧٣
الطبعة الثالثة: آب ١٩٧٥
الطبعة الرابعة: حزيران ١٩٧٨
الطبعة الخامسة: حزيران ١٩٧٩
الطبعة السادسة: تشرين الأول ١٩٨١
الطبعة السابعة: كانون الثاني ١٩٨٥
الطبعة الثامنة: كانون الثاني ١٩٨٨
الطبعة التاسعة: تموز ١٩٩٣

الإهداء

أبي
وهذا أيضاً من نرف المعركة
وهذا أيضاً لك أنت
فما زلت وحدك صديقي وفخري
بإخلاص أرفعه لك
بعد أن انتظرت بإخلاص أن يكون لسواك
وانتظرت حتى لحظة الطبة الأخيرة فيه
وحتى اللحظة الأخيرة
ظللت وحدك قبلة عطائي

غاده

العاصفة تشرق المدينة بالمطر والظلمة وزعيق الريح . غرقني خائفة
مدفونة في أحشاء البناء ، الساعة تلهث فوق الحائط وتكاد عقاربها تشير
الى الثانية عشرة . مكتبي المتخمة تتوهج بالتحدي ، والمطر يتطفل على
النافذة ، وعلى وجهك الذي يطل أبداً خلف أية نافذة منذ عرفتك .

أمامي حقيبة سفر مفتوحة ستكون ممثلة بعد دقائق .. وورائي ساعة
وحائط ومكتبة تمردت عليها لأنني اخترت النافذة والمطر، والظلمة والمجهول،
ووجهك الذي يطل أبداً خلف أية نافذة ، ولأن في صين ، وراء الثلوج
وراء المطر ، وراء اللون والصوت والصدى ، قبة منسية في آماذ الوحشة
اللامتناهية ، ولأننا سوف نبحث عنها ، سوف نذهب اليها ، سوف
نحترق فيها ، وسوف ننطلق منها الى الحقائق الصلبة النائية ، ولن نعود
وسوف نهوّم طيرين ، ذئبين ، ذرتين ، ولا شيء سوانا .

سيقولون هربا !

ولن نلتفت لنقول لهم اننا لم نهرب وانما رحلنا حينما فقدنا إحساسنا
تماماً بوجودهم .. انني أسمع مديري يصرخ : « تلك المجنونة ! كانت
أكثرهن ثقافة واتزاناً وعملاً . »

ثم تتولى زوجته شرح الحكاية المثيرة للصديقات ، وما أكثر صديقاتها
يوم تولم في الدار فضيحة : كنت أتوقع لها ذلك منذ البداية ، عانس ،

جميلة ، ولا أهل لها ، كتاب واحد في مكتبتها الضخمة يدفع بأي عاقل الى الجنون .

فليقولوا ما شاعوا ، يا ثيابي المتهاوية في الحقيبة الفارغة ، لن أتردد يا قبة في صنين ، يا وجهه خلف النافذة ، يا سأم أعوامي الثلاثين العلراء بين صياح مؤذن وناقوس كنيسة . حواء استيقظت ، فليسجد الغاب . لن آخذ معي أي كتاب . لتكون للمرة الأولى حقية أنني !

الساعة تزداد وجيباً فوق الحائط . دقائقها الاثنتا عشرة تكاد تحل المدينة . لا ريب في أن زوجتك الآن نائمة ، وأولادك نائمون ، وأنت تنسل من غرفتك هارباً منها ، من الحكايا الرتيبة المزججة المكسدة في ثنيات منحربها ، من أرجوحة السأم المعلقة في كل زاوية من الزوايا . تحمل حقية هياتها منذ النهار ، وتنسل نحو الباب بهدوء لتتظرنني عند الشجرة قرب بيتك . لن أتأخر ، يا صدرك العريض اني قادمة. أحاول أن أحل حقيقتي بعد أن أغلقها ، انها ثقيلة تشدني الى الأرض ، الى غرفتي ، وبيتتي ، انتزعها وأخرج من الغرفة. أذرع خفية تمتد منها ، نحاول أن تقبض عليّ ، أن تعيدني الى سكينه يأمي فيها . لن أبقي هنا أجتر عمراً عقيماً أبله الانتصارات .

أهبط الدرج بحقيبتني ، ترى في أية غرفة سوف أفتحها ، وعلى أي مشجب سوف أعيد ترتيبها ؟

لا أدري لماذا يغمرني إحساس كلي مكثف بأن ذلك لن يكون أبداً . أمزق تلك المواجهس وأنا أفتح باب سيارتي الصغيرة . ألقى بالحقيبة على المقعد الخلفي . أدير المحرك . أتمهل دقائق ريثماً أدفئه . انطلق اليك. التفت نحو بيتي . اودع استكانته في التواضع الصامت الدليل بين بقية البيوت . اني أتفجر ، أتمزق شوقاً للرحيل . ثلاثين عاماً وأنا أبحث وعبثاً أبحث ، وأنا أظن أحياناً انني وجدت شيئاً .

كنت فأرة مكتبة . رقصت مع شياطين « ميلتون » ، وطففت بالجحيم مع داني ، وزحفت في أزقة باريس مع زولا ، وتهكمت مع فولتير ، وماذا بعد ؟ لا شيء ؟ لا شيء سوى انني لم أجد الحقيقة التي تسندني . تعيد خلقي ، تميزني ، تمنحني خصوصيتي في هذا الضباغ الرحب . لا شيء . ميلوزا الثقافة حجرتني ، زادني تشوهاً ، وظل السؤال يمزقني : وماذا بعد ؟ وما معنى هذا كله ؟

حتى التقينا ، فعرفت أن الحقيقة الوحيدة هي الرجل المحب المحبوب . لا ، لست نادمة ، أنت فرصتي الأخيرة والوحيدة . ولن أتردد

اتجه صوب المكان الذي اتفقنا على اللقاء فيه . أكاد أصل . أرى بيتك غارقاً في سحب الكسل والموت . أنت شهاب يضيء عند الشجرة ، أتجاوز بيتك أتوقف أمامك . ألتقطك . حقيقتي تتأوه نشوى تحت ثقل حقيقتك التي ألقيت بها الى المقعد الخلفي وأنت تجلس الى جانبي .

من جديد يتوهج جو السيارة .

من جديد تطل العينان العجيبتان ، من جديد أخفف من سرعة السيارة لألتفت الى وجهك ، الى الثنايا المعشقة التي أغرق نفسي فيها ، فأحس بترف الحب ، بنزق الحب ، وأحس بك ، بكبانك ، بأشياك المحببة نحوطني ، تلمم خيبة أعوامي ، تلممني من المكتبة ومن الشركة ، من ليلة حزينة حزينة ومن شارع مقفر . تلمم شعبي فإذا أنا قطة مخملية نظمر نفسها في رماد موقد مطفاً يشع دفئاً عذباً . أحب رمادك أيها القابع الى جانبي . يدك تتسلل لتغرق في شعري . تنعشي الأنامل المبدعة المدغدة ، الأنامل التي طالما أبدعت حكايا للناس ، الأنامل التي ترحل اليوم لتكتب قصتها هي ؛ قصتها وحدها ؛ لتروي كيف تتمرد نفوسنا فتهب من صيفنا الاجتماعية من قوالبنا في متاحف الشمع ؛ نغرق أربطة ثقافتنا ؛ ونتحدى عقم الأشياء ، فنصرّ على حقيقتنا ؛ ونبحر مع الليل ؛

مع الزوينة ؛ كي نحطم جدار العجز والاستسلام ؛ وننطلق خارج أسوار
المدينة اللامرئية نكافح عدواً نجعله هو بعضنا .

تهمس : « الى أين ؟ » .

أحب صوتك ، أتلدّ بطعم الصدى في صدري . الى لا مكان ، الى
لا زمان ، الى حيث أغنية الجبل الزرقاء الداكنة .

وتتلاقى نظراتنا . في مد الموجة قرارة يأس . في نزق عنفنا لذعة
مرارة كأنما نحن نؤمن ، ونرفض أن ندري ، أن لا مفر من أسوار
المدينة .

وأعود بنظراتي الى الشارع الذي يحملني بعيداً عن أسوار المدينة ،
أنتعش وأنا أرى عجلاتي تأكل منه ، وتعود تسألني : الى أين ؟
الى ما وراء الثلج ، ما وراء الألوان والأصوات !
البارحة ..

البارحة لما انصهر الوجود كله ليستحيل الى أنت تودعني عند الشجرة ،
قلت لي كما لا يفعل أبطال قصصك : « لماذا لا نرحل ؟ »

ولم تبد لي فكرتك غريبة كما كانت تبدو لبطولات قصصك . فأنا
أعرفك كما أعرف نفسي ، وأعرف اننا ورقتان فقدنا كل ارتباط بأية
شجرة في البستان ، وان أية نسمة يمكن أن تحملها بعيداً الى يبداء ، الى
بحر ، الى قة ، الى لا مكان . كما تحملنا الآن شلالات المطر التي تزداد
عنفاً وشراسة ، لحظة بعد لحظة ، كأنما نحن نتغلغل نحو مركز الأعصار .
انك تسترخي في مقعدك بينما تطفو على وجهك أحزان عتيقة ، لا تقل
شيئاً . اني أفهمك . اني أسمعك تردد كما تردد دائماً حيناً يرسم هذا
الحزن في ملامحك :

« لقد انحطت يا سنية .. أحس إحساساً مفاجئاً بأنني سندية عجز
مقطوعة ميتة الجذور ، في جيل منبوذ كانت له أجداد غابات . عمري ألف
عام من سأم وغربة . حيناً أنظر في عينيك ينشق خريفني عن برعم » .

انك تلتصق بي كطفل متعب .. لا لم تستهلك قسك ، غداً تتجدد
في صين !

أظّل أنطلق بسرعة في الدرب الى لبنان ، ألحظ انك تعالج حلقة في
بنهر يدك اليسرى ، تخلعها وترمي بها من النافذة . الى يدك أسترى
النظر . ما زلت أرى حلقة صغيرة مضيئة كوشم الجمر تحيط باصبعك في
المكان الذي كان يشغله الخاتم .

مخفر أمن الحدود يضيء . نتوقف نبرز هوياتنا . تتحرك الملامح
المتعاطفة لضابط ، فتتشق عن فم يقول : « الطقس ينزل بعاصفة ، وقد
تغلق الطريق في أية لحظة . من الخير لكما أن تعودا » .

لا نجيب ، نمضي بعض لحظات ونظراته المستنكرة تلاحقنا . تنقضي
عدة دقائق . نتوقف مرة أخرى - ضابط آخر . بعد لحظات ننتقل في
سهول شتورة نحو جبال لبنان . حطمتنا جدار الصمت ، جدار الأيدي
العتيقة ذات الأصابع المشيرة أبداً الى وجوهنا .

بدأت الدرب تصبح صعبة . الصعود شاق . القيادة في هذا الليل الوحشي
متعبة . أنت صامت ، ماذا بك ؟
تهمس متعباً : « الى أين ؟ »

ولماذا الى أين ؟ ما الفرق ؟ غداً ، بعد غد ، في لحظة ما سوف
نكون هناك في القمة ، وسوف نخشع لأغنية الجبل الزرقاء حيث تتطابق
الحقيقة المكتشفة مع الأسطورة في واقع لم نألفه . وهناك سوف نبدأ انفصالنا
النهائي عن الأشياء التي لم نختبرها يوم ولدنا . سوف نصنع وطننا ولغتنا ،
وسوف نتصعد ، نعود كما كنا قبل أن تفرض علينا قوى عديدة ،
طبرين ، ذليين ، سمكتين ، انسانين مطلقين حرراً حبهما من القوالب
المسبقة والآخرين ، المطر يشتد . السيارة تتأوج كأنها بين فكي شلال
أهوج . الريح تصفعها تركلها من كل جانب . غضبة الليل العاصف تأكل
من أنوارها . بدأت أغرق في إحساس مرعب أكيد : انني أقود دون

أن أرى شيئاً ! تعب حقيقي ملتاح ينبثق في جوارحي كلها. ضوء السيارة يفرق أحياناً في هوات مرعبة لوديان فاغرة الأفواه من جانبي الطريق . وبلا وعي مني أضغط بقدمي على الكابح . أئينه مخيف . رغم ذلك كله ، ورغم انني أسمع صرخات عشرات الناس الذين انزلقوا الى الوديان في مثل هذه الليلة ، فإن فكرة العودة تبدو سخيصة ومهينة . اذا سقطت فلن أصرخ . اللرب ضيق يتزلق بين تارة وأخرى على شفة الهوة ، أسيطر على العجلات وأنت صامت الى جانبي وقد بدأت تشع خوفاً . ماذا بك ؟

ونهمس متعباً : « الى أين ؟ »
وأود من قلبي كله أن أقول لك الى لا مكان الى لازمان ولكنني أحس ان يدي المسكتين بالمقود تؤلمانني وان عليّ أن أحدد مكاناً أريحها فيه .
— الى أين ؟

لا أجيب ، أغرق في عجز مكابر ، على أية حال سوف نذهب ، لن نعود . لن نقهر ولو هزمنا . لن نتوقف . التفت اليك حيناً أصل الى هذا الحد من التصميم . في النور الباهت أراك تمدد الى وجهي بذعر حقيقي ملذ . وفي عينيك أرى صورة الفتاة التي تأملها بمنقوة الملامح هوجاء النظرات .

ويزيدني رعبك رغبة ضارية لتحسس مدى قوتي . اني أعبد نفسي . أخافها . كيف اثبتقت هكذا فجأة دنيا من الرفض ؟
أسمعك تهمس بعجز : انها ليلة رهبة ، والعاصفة على ما يبدو شاملة . لقد نسيت أن أغلق نافذة غرفة الأولاد قبل رحيلي .

نافذة غرفة الأولاد ؟ أما زلت تسمع صوتها والريح تتلاعب بها حتى الآن ؟ وأنت أيضاً ما زلت ساقطاً في شرك الحياة العادية ؟ وروايتك ، روايتك الحقيقية لن تكتبها . والحقيقة الكبرى لن تعرفها ما دمت عاجزاً عن اغتيال شخصيتك الثانية التي تتقاسمها مع الناس كلهم ، مع أنفه الناس !

تقرب ، لا أقول لك شيئاً ، أدرك بأسف حقيقي أنك دون رحلتنا
وانك عاجز عن الانسلاخ وعاجز عن الاستمرار . جلدورك ما زالت هناك
عقيمة ، تدمر فنك ، تتكدس في غرفة أطفالك ، تلبس حول قوائم
الأسرة ، تلمس بالأخطية كي لا تنحصر عنهم ، وتلاحق النوافذ المشرقة
فتغلقتها . أسألك وأنا لا أهني ما أقول : هل نعود ؟

تجيب لا أدري . أنك تتمزق ، أعرف أنك تتمزق ، أيقظت العاصفة
الزوج الضئيل في نفسك فحييت إليك أركان السأم الدافئة . أما أنا
فجلدوري هناك في صين . أسمع في العاصفة أصداً أغنية الصخور ذات
الاتصال الحاد الصارم عما حولها .

أزيد في سرعة السيارة . صين يولد في كل منحي حيث يسطم الموت
بين عجلات السيارة . أنك عاجز عن متابعة انطلاقي . أنك طفل ، أحس
أنني أخطفك ورائي كوكباً ساكناً مطفاً يرقب برعب سخرية شهاب يسطم
محرقاً . أنك طفل من مدينتهم . خطفتك جنية من الغابة القرية وجاءت
بك لتعيش معها في قمها وحاولت تمويدك طعام الجنيات المجيد ، لكنك
تبكي طالباً ضرع أمك . وفي المدينة ملايين الضروع ، بودي أن أعيدك .
لكنني أنا لن أعود !

تهتف بي مدعوراً لصرير الكابح المخيف : ماذا دهاك يا سنية ؟
هل جنت ؟ قهي قليلاً ودعينا نتحدث !

نتحدث ؟ ولماذا ؟ كي نضيع همجية حقيقتنا ؟ كي تعيدني الى أربطة
موميائي ؟ الى أجواء متحف الشمع الذي هربنا منه ؟ لا . لن أحدثك .
ألا تشعر بنشوة الرعب والرفض ؟ نشوة التحدي والقسم ؟ نشوة الثورة
حينما تجدد خلقنا . اني انطلق ، أحترق ، يا نشوة الصنوبر حينما تلمسه
النار بعد ما تكس ثلاثين عاماً في مخازن الخطب .

تتمدد يدك الى الملباع وتفتح فجأة . لا شيء سوى أصوات مشوشة
مختلطة . ما زالت يدك تبحث عن مهمة لإنسان . عن مهمة من عالمهم .

لكن أغانيهم ونكاتهم وبرامجهم قد استحالت الآن الى لا شيء . في العاصفة تسقط الأقنعة وتتهادى الأشياء المزيفة .

محطة واحدة . صغير واحد مقطوع هو كل ما استطاع أن يقاوم العاصفة ويظل من إحدى المحطات . انك تثبت الابرّة بصعوبة عليها ريثما تلتقط أنفاسك وتجتلي معانيه .

الزوجة أمست أثقل من أن تحملها سيارتي ، ويداي بدأتا تسترخيان فرق المقود ، لكنني راضية بدنيا الجبروت التي فوجئت بها لحظة تحديث الأصابع المشيرة وخرقت أسوار مدينتنا . لكنني أنعذب . أحس أن جسدي بدأ يحزن فكري . وبأن طاقتي الآدمية لن تستطيع اللحاق برغبات الجنينة وثوراتها في أعماقي ، يا حسرة آلهة مكتوب عليها أن تنمب وتنشقي وتموت . لا مفر من ذلك سلاسل آدميتنا . يا رأسنا بين النجوم .

السيارة تتأرجح بفرابة كأنها تعاني عطلاً ما . أنت تترك المدياع وتمسك بمقعدك ، تظل الابرّة ثابتة على المحطة الوحيدة العجيبة التي تقدم لنسا العالم الخارجي ، نسمع صغيرها بوضوح رغم عويل العاصفة ، صغير رمزي لسفينة . نداء الاستغاثة ، صغير رتيب حاد يرسل رموزاً لكلمات مقتضبة مرعبة : أقتلوا أرواحنا ! ولحظة بعد لحظة أهوى من قم الجنينات وأتحلل . أغرق في النداء الانساني المخيف . وأرى انك تجمد فلا تمجد يدك لتسكته .

ولحظة بعد لحظة تتفتح أغنية الجبل الزرقاء ، وتتزاح ضباباته وغماماته ورموزه فينتج سره عن حقيقة واحدة . عن سفينة ضائعة في مكان ما من هذا البحر الواسع . سفينة ينتظرها القاع . كم يمزقني أن أحس بالعجز . عبثاً ترسل صرخاتها في المدى الغامض : عبثاً تستغيث . لن تسمعها سوى سفن مشابهة تنتظرها أعماق مشابهة ويشدها اليها مصير واحد . ولحظة بعد لحظة يمتصني نداء الاستغاثة المرعبة وامتصه . وأحس بأنني أنا من بعض تلك السفينة الضالة . مسمار صدى في أحد أركانها . في

مكان ما من هذه الأمواج المتلاطمة ، في مكان ما سوف استسلم لنداء
القاع وسوف تبتلعني الهوة دون أن يحس إنسان بحقيقة معنى زوالي .
تمتد يدك لتسكت شؤم النداء المؤلم . قبضتي تتلصم وراء قبضتك ثم
تطبق عليها وتظل ممسكة بها . لا تهرب . هذه هي الحقيقة الوحيدة .
- انقلدوا أرواحنا - نتحب باخرة ما ضالة في بحر ما - انقلدوا
أرواحنا - غداً يقولون هربا فتخطا مع سيارتها. لم تعد لسيارتي عجلات
أسيطر عليها . أحسها تقوم منحررة من يدي والمقود ، تقوم في بحر
مظلم أمواج متلاطم .
أحس بالجلد . بصوت واحد متقطع عذب يصفر به صدري المنخور
وبمترج مع نجيب الباخرة ، وفجأة أراها - الهوة أماننا . تتوهج الأضواء
دفعه واحدة وتتدفق اليها مع المطر والرعب . أرى القاع الى حيث تندفع
السيارة . صراخ . انسجام عجيب بين الصراخ والصغير الملحاح . يدي
في يدك . القاع ... أين النور ؟ لا شيء .

لجنة اللحم الأسمر

في كل ليلة يا صديقي، حينما تترلق المدينة في أحضان الظلمة والصمت،
وتنام عيون أهلي في النار ، أنسل أنا من فراشي ، وأنسل بصمت
للصوص الى غرفة المكتبة كما أنسل الآن . وفي كل ليلة يا صديقي
أتحسس جدران الممشى في الظلمة فأحسها طويلة نحيفة كدروب الأساطير،
مطلية بوجوه صغيرة نافرة . تقفز فجأة أمام وجهي ثقيلة الأجفان، حادة
الأنياب ، فأصطدم بها بلا شيء، وأتمتر بالشاطر حسن وعلي بابا والساحرة،
وبإبطال الحكاية التي كانت تقصها عليّ أمي أيام طفولتي وأود لو أصرخ
كما أود الآن ، وأمد يدي أمامي لأؤكد ان ليس ثمة أحد ، كما أمدتها
الآن

انني أتماسك . لن أصرخ . أريد أن أصل الى المكتبة ، وأريد أن
أشعل حود البخور في الركن المعتم ، وأريد أن أقبح أمام الهاتف كاهنة
علاء ساذجة أعدت لك المعبد والبخور والضحية الحارة ولم يبق إلا
أن ينبعث صوتك من سماعة الهاتف ، وكأنما من كل مكان ، قاسياً
حنوناً غامضاً .

الى غرفة المكتبة أصل ، ببطء أدفع الباب ، أنيته الخافت يرصني .
عمي المشلول لا يمكن أن يوقظه صريه ، ولا صورة أمي الميتة المصلوبة
على الحائط ، لماذا أنا خائفة ؟ نشوتي الكبرى كل ليلة في أن أتساءل :
لماذا أنا خائفة ؟ كاذبة ! تومض الكلمة كبيرة حقيقية : كاذبة ! لست

خاتمة . لماذا أحب أن ادعي بنفسي ذلك وأصر عليه ؟ لماذا استدعي
رعشات الصبا الأولى أقبلها لكي أعيشها .. لماذا يا نفسي لم يبق لي إلا
أن أهدع نفسي ؟ شعباً عجيباً انفض كل ليلة من فراشي لأكبش مقابر
الليل بحثاً عن طفولتي ، عن مثلي ، عن أوهامي .. كاهنة مرعبة ،
استميت لأبعث أصنامي ، ادعيتها ، أثبتها من جديد وأنا أعرف لا
جدواها ..

لماذا كل ليلة أحدثك بالهاتف ، أحبك الى رجل مقطر في صوت ،
ولا أريد منك إلا الصوت ، أنا التي أستطيع ببساطة أن أذهب اليك ،
ان أنضي ساعات بطولها لديك ، فأنا امرأة عاملة ومسؤولة . لماذا أعود
بعد كفاح مريض لأنصرف كاتبة الخامسة عشرة ؟ لماذا استدعي ظلال
المراقة : الليل والبخور وعبر الياسين لألقاك في أفيائها ؟ أية خيبة في
اللحم والدم ردتني الى أجواء الأثير .. الى حديث ، لا أتجرع الرجل إلا
بعد أن تمطره شحنات الليل والبخور الى رجل مقطر في صوت ، الى حلم
ليلة صيف .

لا أحد في المكتبة سوى خفق أنفاس الياسين اللاهثة عبر النافذة ، في
الركن ثبتت عود البخور ، وكما في كل ليلة تنجذب نظراتي الى صورتها
الحبيبة البغيضة على الجدار وأرى ملامحها تمتد وتبهت تمتزج فرائها المشوشة
بالخائط فأحسها من بعض الخائط ، من بعض الحجر والاسمنت . اني
أكرهك يا أمي ، يا بعضاً من الطلاء والحجر . لماذا انتحرت ؟ لماذا
تأمرت مع عشيقك الموت وتركيني ومضيت ؟

أناملي يلذعها عود التتباب الذي نسيته . أتركه على الأرض ، عاد
كل شيء يتمرغ في أحضان الظلام ، ثعابين الدخان المطر تصاعده ،
تتلوى ، تتلوى راقصة شفاقة ، تتأوه بصمت . أحس في ثقلها نداء
مكتئفاً لدنيا عجيبة قصية ، هي ملكتي ، تنبسط كل ليلة حيناً ينطقى

المكان والزمان وعود الثقاب ، تبدأ حدودها عند أول شعاع ترسله أضواء الشارع الباهتة في المكتبة، وتمتد على طول شريط الأضواء الباهتة المحدودة في شوارع طويلة فارغة ، وتتلوى مع الشريط الذي ينطفئ في الصحارى والبحار ، ليلوح من جديد شاحباً متعباً في مدن أخرى سحيقة ، وأنا أمتلك هذه الدنيا التي أحيلها جديدة مغرية بعد أن ينحسر الناس في شوارعها الى عليهم ، وبعد أن تتوقف العجلات والحافلات وتهدأ يد شرطي السير في جيوبه ، فيصمت عالم الدم واللحم ، عالم الخيبة ، عالم الوجوه العاجية الكامدة التي قد تستأجر البارمان ، كي يخض لها الدواء . وتبدأ حدود مدينتي ، مدينتي الكبيرة ، كل مدينة ، مدينة الصمت ، وعيون الشريط الكهربائي المنورة الشاحبة ، المرقبة أبداً ، مدينة الأثير وأنا سيدتها ، وأنت بصوتك العجيب تبغني ، تجدد خلقي وتؤكد لي أن الأثير حقيقة ، وفي موجات صوتك الحارة كالبحار الأسمر أقلب . تعلمني من جديد كيف أهجر المقايضة لأحلم وأهذي وأكون أنا . أحبك يا رجلاً مقطراً في صوت لم تدنسه بعد لعنة الدم واللحم . بعد دقائق أسمع دقات الساعة الاثنتي عشرة ، وحينما تغيب آخر دقة ... وبينما يدي ترتعد متوترة على سماعة الهاتف سيسطع في قلبي هديله ثم يتدفق صوتك ، يغمرنني بتوجني ملكة من أثير تضم اليها رجلاً من دخان .

عود البخور العجيب يزفر أنفاسه . أحسنني انحد بها . انحلل وأتمدد معها من جديد ، كثيفة غامضة تتوق الى نشوة التلاشي في حنايا مدينتنا السحرية .

الساعة بدأت تدق . يلذ لي جوعي البك ، أحب أحاديثك ، أحس فيها رنة غامضة كالنجيب المكثوم ، كوتر سر خفي تكاد الحروف تتمزق عنه .

دقة الساعة الأخيرة ماتت منذ حين . الهاتف لم يرن، سندريلا هربت

من أميرها ، والمدينة سقطت في حضن الليل الصامت ، وأنت لم تهتف .
للمرة الأولى تتأخر . ماذا حدث ؟ لعل ساعتك تخلفت بضع دقائق ،
سوف أنتظر بضع ثوان لا أكثر ثم تتلقف المدمنة جرعتها المخدرة .
الدقائق تمر بي شامنة ساخرة . الهاتف ميت . العالم الذي ابتدعته بك
ومن أجلك يهتز . الساعة عادت تدق . دقة واحدة . أستسلم للمقعد .
أرغب بذعر . بصيص البخور يكاد ينطفئ وغيمة الأثير بدأت تذيب .
المرثيات بدأت تتضح وأنا أكاد أعود أنا . وخوف حقيقي يغمري .
لحساسي بالمدينة بدأ يعاودني ، أحس بأنني أسقط في شوارع طويلة مزدحمة ،
تشرق عليها الشمس محرقة ثم تغيب بسرعة خاطفة للأبصار ، لتعود وتشرق
وتغيب ، والشوارع مزدحمة بأحاديث سريعة غير مفهومة وبشعوات متراكمة
في عيون رجال فارقوها برهة وسوف يعودون ، وهي لهم وحدهم . في
كل حجر من أحجار الرصيف آثار أقدام ، وعلى كل جدار بصماتهم .
على كل شيء بصماتهم . علي أنا . أين صوتك بخدري ؟ علي أنا . اني
أسقط في القبر .

لما اقترب مني ذلك الأبله ، قلت له : اني أبحث عن رجل عينا
نجمتان . دعني . قال : تعالي .. أنا أبداع نجوم المدينة . وكان له متجر
كبير ورائع ، في زاويته قالب حلو لامرأة ، قال : انصهري فانصهرت ،
قال انسكي فانسكبت . قال كوني فكنت ، واذا بي دمية من زجاج
شفاف ، وانطلقت في المتجر وكان مملوفاً بالدمى الحلوة مثلي ، لكنهن
كن سيدات في المتجر يقضين النهار في طلاء وجوههن وإلصاق الشعر
المستعار برؤوسهن ، ووجدت انه كان قد اقتلع عيونهن واستبدل بها ماسات
وجواهر .

وأخذت أنتحب ، ولما وجد اني أبكي ، تذكر انه كان قد نسي
شيئاً فعاد ليقتلع عيني كي لا أرى اني دمية وانه مزيج غوغائي من لحم
وعرق ودم ، قال لي : اقتربي . أحب لحملك الأسمر . صرخت :

دعني .. هناك أشياء كثيرة أخرى هي أنا . قال متعجباً : كم هو وزنك لأعرف من أنت ؟ وهربت من المتجر ، هربت أحل لعنة اللحم الأسمر . ولما التقيت بالرجل الآخر وقال لي : أحبك ، أحسستني أميرة الندى ، ولما غمزت في خضرة عينيه ظلال حر أعرفها ، صرخت .. سوف أكرهك حيناً تلمسني ، وسوف أتلذذ طويلاً بعذابني لأنني كرهتك . وتعذبت كثيراً ، وتلذذت كثيراً ، وكرهت كثيراً . عبثاً مزقت الوجوه بأظافري بحثاً عن رجل عيناه نجمتان تمطران حناناً أخضر ، لكن الرجال الذين ضيعوا أنفسهم لا يشعرون . أين أنت يا عموداً من دخان لم أكرهه بعد ؟ لماذا لا نتحدثي ؟

الساعة تدق دقتين ، عود البخور انطفأ ، اني أتخجل بعدما كنت قد اتحدثت به ، يعاودني إحساسي بثقل الوعي ، يدي عادت يدي ، وجسدي عاد جسدي ، وصدري عاد يعلو ويهبط متعباً ، موحياً بمباهج مرعبة ، وأنت الذي رفضت أن أراك البارحة وكل بارحة ، أتمنى لو انك الآن أمامي ، لأن البخور عاد رماداً دقيقاً تافهاً ، والياسمين انحسر ، والليل عاد ليلاً بشرياً مشحوناً بأصداء غناء جماعي في ليال تعبق برائحة الشواء الحار والضحك والشراب ، وأنا أضج برغبات كاهنة شهوانية في معبد من جليد . لماذا أحقد عليك وأنا من بعض لعنة اللحم والدم ؟ لماذا أحقد على الظلال الحمر في عيون الآخرين وأنا من بعض حرارة الظل ووهجه وعنفوانه ؟ أنا لا أدري من أنا ، اني أتمزق . اني عذاب الماء تعشق النار ، يضمهما جسد واحد . لماذا لم نتحدثني بصوتك الليلة ؟

لا مفر من أن اشعل النور ، تسطع الأشياء ، المكتبة ، صورة أمي ، أنا وأشيائي الممزقة ، حاجتي اليك ، لم أعد أقوى على الانتظار . انهار . أعبد القوة في انهياري . أتحدى نفسي . سوف أهتف لك ، لا ريب في أن رفضي الدائم جعلك تسأم وتمضي متمرداً على قدر الأثير ، سوف أهتف لك ، قد تكون أنت رجلي الذي يستطيع أن يخلق التعايش بين النار والماء ،

لماذا أغلف رغبتي بك بالأمل ؟ فلأعترف ، لقد أدمتكم ولا خيار لي ،
وإذا فشلت ، فلن أكون غيبة أكثر مما كنت .
سوف أهتف لك وأضرب لك موعداً ، سوف أذهب الآن اليك ،
أرفع سماعة الهاتف وأضعها على أذني ، لا أسمع أي صوت ، أضغط
بأصبعي على زرّه عبثاً . لا صوت ، لا صدى ، يجرون حفرياتهم في
شارعنا . وبعد أن يجمد كل ما في الغرفة فترة طويلة ، أنا والحائط ،
والصورة ، والهواء ، تقهقه الساعة شامته ثلاث دقائق .

أفيا ب ربل وحب

(●) حول التلفزيون اللبناني هذه القصة إلى تمثيلية تلفزيونية من حلقتين إخراج الفنان انطوان غندور.

الموسيقى متمردة هوجاء كمخيف ثوب غجرية ترقص ، هنالك جلدان
من الدخان الملون بأضواء باهتة ، وحكايا باهتة .. هنالك رؤوس لرجال
متعبين مغروسة في الفضاء الغائم للقبو ، وكؤوس ترتفع لحظة قبل أن
ينسكب النسيان منها في هوات بلا قرار .. هنالك قامات مزينة لنساء
ملونات تتأرجح بين المناضد والرؤوس كالدُمى التي أتقن لفها وحشوها .
وهنالك آهات مثيرة الأوجاع .. وكل ما في القبو يلث كصدر كبير
ضاقت أنفاسه .. كصدره ، كصدر تلك المرأة التي تقف هناك تحت شلال
الضوء الأحمر وتغني ، وتهز جسدها أكثر مما تغني ، وتتلوى وتهمم وتثن
أكثر مما تغني ، كأنها تريد أن تغني « بالإحشاء » ، أو كأنها تريد أن
تغني بشفتيها ، « وتعزف » بأردافها وكثفها وظهرها .. وكان أي مخرج
لم يشمل بعد يستطيع أن يكتشف أنها ماهرة في « العزف » أكثر منها
في الغناء !

الجميع يتابعون « عزفها » بإعجاب ثمل . فالأغنية ، عسدا خشونة
صوت صاحبها ، قد حددت كلماتها .. أما « المعزوفة » فتترك الحرية
لكل منهم لينظم الكلمات كما يشتهي ..

وكان هو ، بوجهه الهرم الوسيم ، وملاحه غامضة الحزن ، وشفتيه
المطبقتين بحزم كأنما على سر خطير ، وعينيهِ المتعبتين كعيني أسد تعيس ،
يرقبها من خلال أمواج الدخان ، يرقبها تهتز وتموج وتتأوه ، وشعرها

الطويل الأحمر المفسول بالدم الشهي يتأوت على كفيها ، وكان هو أيضاً
يرصف كلمات أغنيته « لمعزوفتها » .. « الليلة ، ستمددين في مبخرة لم
تعرف ثانياً جسدك دفء بخور كبخورها ، ووحشية جمر كجمرها ..
الليلة » ..

— بسام ..

يسكب ما تبقى من كأسه في جوفه المتخم بالحزن والرعب . يلتفت
ببلادة الى أحد أصدقائه الثلاثة الذين كانوا يقاسمون منضدته :

— ماذا يا دريد ؟

— هذه كأسك الخامسة .. يكفي أرجوك ..

— هذه كأسي الأربعون .. وهذه المرأة الأربعون .. وهذا في وهذا

جوفي .. وأنت هنا صديقي ولست طبيبي ..

— ولكن ..

— ولكن لا تتدخل وتفسد لي حياتي ..

يشل مندر الى الحديث بلباقة المحامين :

— دعه يشرب يا دكتور دريد .. لم نرَ الأستاذ بسام منذ أعوام

بعيدة ..

المغنية « العازفة » تكف عن الغناء وتنحني للتصفيق جيداً حتى تتيقن
من أن السكارى جميعاً قد لمحوا أكبر قدر ممكن من صدرها ثم تنسحب.
ينهض الرجل ذو العينين المتعبتين كعيني أسد تعيس ويتبعها دون أن يستأذن
أصدقاءه . لا ييلو عليهم أي انزعاج أو أية دهشة . هذه حاله منذ
أسابيع كلما خرجت فريسة ملونة تستجدي صياداً كان لها أمهر صياد
وأغنى صياد .. وأكثرهم شراً ..

يهتف الدكتور دريد بطلاقة :

— ان صحته تسوء يوماً بعد يوم بطريقة غامضة لم أشهد لها مثيلاً !

يبدو أنه لن يعيش طويلاً ..

— من قال لك ذلك ؟
— أنا .. والآلة التي غطت قلبه ! سأحدثكم بسر .. ان مخطط قلبه أغرب مخطط لقلب بشري .. يخيل إليّ أنه مصاب بجنون غامض .
يضحك هشام كأنما لنكتة تذكرها ويقول متلعثماً :
— لو قيل لي منذ أشهر أن الاستاذ بسام مصلوب في أعلى برج إيفل ، أو أنه يعمل مهرجاً في سيرك ، أو أنه يغازل الآنسة « نمثال الحرية » لصلقت أكثر مما لو قيل لي انه قد يسهر معنا .. وأين ؟ هنا .. ومع من ؟ مع نينا وشارلوت وثرثريا .. وأخيراً ذات الشعر الأحمر ، أنوار ! يستنشق منظر لقافته بشفتيه ويهمس بيئنا تقرب رؤوس الرفاق من رأسه :

— الأغرب من ذلك .. لا .. من الأفضل أن أحفظ أسرار المهنة .
يهتفون بشراة :
— ماذا ؟ قل .. كلنا أصدقاء .
يشجع كأسه مرة واحدة :
— لقد زارني منذ اسبوع ، وكان حائراً في أمر ثروته التي ورثها عن أبيه ولم يبددها كما فعل أخوه .. وقد كتب وصيته !! وأنا كمحام ، أحفظ بها في خزائني .
يهتف أصدقاء بسام « الأعضاء » مرة واحدة :
— وماذا فيها ؟

وبيئنا كان منظر يحدث دريد وهشام عما في الوصية ، كان بسام يتأمل شعر أنوار الأحمر المفسول بالدم الشهي ويهمس :
— دعينا نخرج من هذا المكان الملل ..
— لا أستطيع الخروج الآن ..
يود لو يبقى أمامها .. يفرس نظراته في العاج الأبيض .. يتحسس

المجوع في مسامها بلسانه .. لكنه يشعر بعشرات من الانفجارات المبهمة في رأسه ، وفي صدره ، كأنه استنشق دخان الصالة كلها ، كأنه امتص الضجيج بأجمعه .. يقول لها بصوت متعب :

— سأخرج وأنتظر في الدار .. لقد أعددت لك مفاجأة لم تحلمي بمثلها ..

— سألق بك بعد ساعة واحدة ... لن أتأخر ..

يخرج من باب القبو فتعربد الأضواء الملونة على ملامحه الغامضة الحزن ، تضيء وتنطفئ وتتناوب بسرعة عجيبة ، الأحمر ، الأخضر ، الأزرق ، الأصفر .. كأنها شريط حياته يمر في ثوان على وجهه ... كأنها فصول عمره كله ... ليت شريطاً من الأضواء لا ينتهي يظل يسطع ، يتخرج كل لحظة لوناً جديداً ، عمراً جديداً .. لماذا هذا الأصفر المرعب كأنياب رجل وحيد ... يكاد يصطدم بشايفين يريدان الدخول الى الملهى ، ينحاز عن طريقهما معتذراً . كلماته المضمخة برائحة الحمرة تصعقهما . يجمدان في مكانهما حينما يتبينان وجه الرجل الحزين ، فلا تتحرك أقدامهما ، وبينما يتجاوزهما يلتفتان اليه متأملين قامته الفارعة تغيب في سيارته الفخمة .. ثم ينظر أحدهما الى الآخر كأنهما يريان أعجوبة .. كأن كلاهما يشك في أن صقابه قد رأى ما رأى ..

— هل رأيته ؟

— أجل ! ولكنني لا أستطيع أن أصدق ..

— لعله رجل آخر يشبهه ..

— الاشاعات تملأ الصحف منذ أسابيع .. اشاعات مشابهة لما رأينا ...

لا ريب في أنه قد جن ..

— هذا مؤسف .. انه من خبرة أساتذتنا .. هل قرأت كتابه الأخير ؟

نه يتحدث فيه عن ...

— كفى ، كفى .. أرجو ألاّ تبدأ بمحاضراتك الفلسفية وإلا كان مصيرك كمصير ... أستاذك !

الاستاذ بسام ينطلق في الشوارع التي خلت من المسارة بلا هدف .. سيارته حائرة كباخرة أضاعت منارتها .. لن يذهب الى داره قبل أنوار بزمن طويل . صار يخافها . يخاف الصوت الرهيب الذي يعرف أنه ينتظره هناك ، لينطلق من رأسه ، من وسادته ، من مقبض الباب ، من مكان ما .. ذلك المجهول الذي يلاحقه .. يخاطبه .. يحدثه ذلك الحديث الرهيب . يقتعه .. يقتعه بلا دليل .. شيء ما في أعماقه يؤمن به ويستجيب له .. لن ينام أبداً لئلا يراه .. لئلا يطل عليه .. ترى هل رأى الناس جميعاً قبل أن يموتوا مثلاً رأى ؟ وهل سمعوا مثلاً سمع ؟ الرعب .. الرعب الحقيقي الذي لم يقرأ عنه في كتاب ، لم يعرفه فيلسوف .. ولكنه .. منطقته يرفض ماذا كله ! المنطق ؟ سنوات وسنوات عاشها كاهناً في هيكل المنطق .. ما أتفه المنطق أمام الحقيقة التي لا تحتاج الى براهين .. انه ببساطة لا يجرؤ على أن يذهب ولن يعرض نفسه للبقاء في الظلام زمناً طويلاً .. يخاف أن ينام .. أنوار مستخفيه تحت جسدها .. تتخذه .. يتخذها درعاً له . لا . لن يذهب الآن . لن يغمض عينيه ، سيعيش ولن يضيع أيامه ..

مأساته بدأت منذ أسابيع .. منذ اقتحم ذلك الصوت الرهيب عزلة استاذ الفلسفة الكبير .. مأساته أنه بصدقه ، ذلك الصوت المجهول الغامض كأحشاء غيمة ترقص فيها ملايين الأرواح الراكضة المعولة ..

هذه الشوارع التي ترقد تحت عجلات سيارته ، بوداعة قشط خبيثة ، تتأهب لنواء طويل مفعج .. (هذا الليل الصامت المرعب والأبدي المزروعة في تربته السوداء التي تفوح منها رائحة بكاء نادب متقطع بشهيق خفيف .. الأيدي التي يحسها حوله خفية حادة الأظافر كخناجر خلعت

أغمارها وتأهبت لرقصة الحرب والموت .. ذات ليلة ، سوف تنقض على عنقه وتدميه .. ذات ليلة ، سوف يصرخ طويلاً ولن يسمعه أحد) . الصوت العجيب لا يقول له هذا كله ، لكنه يقول ما فيه الكفاية .. يومان .. يومان وتنتهي المهزلة .. ليتها لا تنتهي أبداً .. أبداً .. الآن فقط يدرك أنها لم تكن مهزلة .. ولكنه كان يعيش المأساة بثياب مهرج! حياته شوهاها ، بعثرها ، حتى الدموع التي كان يحسبها بلهاء كانت حقيقية ، والرغبات التي كان يحترقها ، يظنها ضعفاً عجلاً ، كانت أصلاً لا عرضاً ...

يدور من مكان الى آخر في المدينة على غير هدى .. لماذا هو وحده يحضي ويفارقها؟ أنفاس الناس ما زالت حارة في الزوايا .. الأحاديث المملوءة بالحياة يكاد يسمعها أمام متاجر الباعة .. لماذا هو وحده يحضي ؟

ما زال يدور في الشوارع وحشاً جريحاً بلا مأوى .. يدور كأنه يود لو يتحسس كل رصيف ، كل عمود ، كل حجر ، كل وجه عابر.. كأنه يستجدي الالتصاق بها ، بشيء ما ، بأنوار ، بأي شيء ..

ما الفائدة ؟ يومان وتنتهي المأساة التي عاشها بثياب مهرج . السيارة تمر أمام دار يعرفها . دار أخيه . لا ريب في انه الآن يضم اليه امرأته السمينة وينام بينها طفلها الصغير يتصلصص عليها من شق غطاءه . يخنقه بؤس مرير .. انه خيمة بلا أوتاد تعيث الريح بها . بلا أولاد يلعبون أمامها . بلا امرأة تنفخ فيها رائحة الطعام والدفء . بلا أفق . أخوه . زوجة أخيه . دريد . هشام . منذر . طلابه . كته . فلاسفته . خدعوه . خدعوه جميعاً . بدأت الحديقة الكبرى يوم أرضعته أمه ، يوم علمته الأخذ ورسمت في عينيه الطفلتين نشوة العطاء المرتسمة في وجهها .. أي عطاء ؟ وأي أخذ ؟ اليوم يكشف أن أحداً لم يمنحه شيئاً ما دام لا يستطيع أن يحمل معه شيئاً ! ما دام سيمضي وحيداً .. أية روابط تشده

الى الآخرين ؟ أي هليان ما دام لا يملك إلا أن يواجه قدره عارياً ..
وسوف يفرجون . قد يحزنون ، وقد يكون ، ولكنهم سيكونون بعينين
كالمفرجين الذين يشاهدون مسرحية ما .. يراقبونها ولا يمكنهم أبداً أن
يعيشوها حقاً .. « اني أتمزق لأنني أواجه نفسي ، لأن أفتني قد سقطت
ولم أعد أملك إلا أن أخلق بعينين مذعورتين الى صدري .. الى الأنياب
المرعبة التي تنمو فيه ولعاب المقدس والشهوة يكسوها كسم فتاك .. اني
أكرههم .. ماذا أنا سوى هلي الأنياب الشرهة التي أود لو أغرسها في
كل دار ، في كل امرأة ، في كل عابر سبيل لن يموت خدلاً ، أغرسها
بوحشية لأتملق بالإشياء ولا أمضي ، ...

بحس انه يحنق . يمد يداً واهنة . يفتح نافذة السيارة . دفعه لليد
بكر ، دفعه الأيام الأولى للربيع بعد شتاء ممجي البارد . ذلك الدفع
الضخور الذي يشع حياة ونزقاً ويهيج في النفوس أشواقاً مبهمة الى أفراح
خامضة ، الى أراض بعيدة ، الى حب مجنون يسري في العروق لامرئياً
كالنسخ .. وهو محروم من هذا كله .. لم يشعر بما فقد إلا بعد فوات
الأوان .. ليله لم يفتح النافذة ..

أمام البناء الضخم يوقف سيارته . يهبط منها وينظر الى ساعته . يجب
أن يسرع في إعداد كل شيء ...

عامل المصعد نائم . كلهم يتام بطمأنينة ، يحملون جميعاً بالنجوم
والشفاه اللامعة المتلثة . أما هو فلماذا يلاحقه هذا الصوت ليحدثه عن
أشياء رهيبة .. رهيبة كصيرير أبواب مقابر أثرية لم تفتح منذ عصور ..
يدير المفتاح بسرعة في القفل ويدفع الباب . يضيء النور قبل أن
يدخل . يسير خطوات في ممشي ضيق . يقف أمام غرفة الخدم . يقرعه
بشيء من المعصية الخائفة . لحظات ثم يفتح الباب وتخرج خادمة عجوز
ما زال النوم يمشش في أهدابها المتكسرة ، تتبعها خادمة أخرى في مقبل
العمر .

- هل أعددت كل شيء ؟
- نعم يا سيدي . وضعتها على الطاولة ذات المعجلات .
- خذها الى .. الى غرفة المكتبة .
- الى غرفة المكتبة ؟
- سيطرت الدهشة على وجه الخادمة وطردت آثار النوم من حينها .
- ماذا دهاه ؟ مكتبته أشبه بالمعبد ، أشبه بطفلة مقدسة مدلاة لا يسمح
- لإنسان بالدخول اليها ، لا يسمح لها بتنظيفها إلا اذا ارتدت ثوبها الأبيض
- ونحركت فيها بهدوء خاشع خوفاً من أن تصيب كتاباً من الكتب قطرة
- ماء واحدة ..
- الى غرفة المكتبة ؟
- الى غرفة المكتبة .. أجل (يصرخ) الى غرفة المكتبة !
- لقد لاحظت انه قد جن في الآونة الأخيرة ، لكنها لم تصدق ان
- الجنون سيبلغ به هذا الحد .
- أمرك يا سيدي ..
- ضعها في الركن ولا تنسي زجاجات الشراب . وانقلي أنت وفتحة
- القراش الصغير من غرفة نوم الضيوف الى المكتبة أيضاً . ضعيه في الوسط ..
- السرير الصغير من غرفة نوم الضيوف الى المكتبة ؟
- السرير الصغير .. أجل (يصرخ) اسرعي ..
- يدخل الى غرفته . يخلع ثيابه .. يرتدي « بيجامة » خفيفة و « روب
- دي شامبر » فوقها . يفضل وجهه . يحمل معه حزمة من الأشياء ويتجه
- نحو المكتبة ..
- لم يكن للغرفة جدران . هنالك رفوف من الأرض حتى السقف مملوءة
- بالكتب ... هنالك جدران من الكتب .. جدران من الهذيان .. هنالك
- أفلاطون وسقراط وأرسطو وايقور وزينون وكانت وديكارت ونيشه

ودور كهايم و .. و .. وهنا كتبه .. جدران من الهديان (ماذا اخترعنا
أيها الزملاء البلهاء ؟ الصداقة ؟ الحب ؟ المجتمع ؟ الاخاء ؟ اليوتوبيا ؟
ماذا اخترعنا ؟ هذه الكلمات البلهاء كأسراب الجراد قد تغطي وجه البحر
إذا انطلقت من رفوفي .. لكنها عجزت عن أن تنسج خيطاً واحداً يشدني
حقاً الى إنسان ما ... الى شيء ما .. ما معنى كل ما كنت أفعله ما
دمت الآن أحس بأن أسسه كلها قد نسفت .. نسفت حقاً .. اني أواجه
نفسي من جديد ؟ من أنا حقاً ؟ الأناب ، الأناب الشرهة بالشهوة
والانتقام ؟ فلاكن نفسي ما تبقى لي) .. العيون الصغيرة المرصوفة
المستديرة تطل من الرفوف بفضول مذعور ..

يسمع نفسه بهذي . يخفيه صوته . يرى مئات العيون : ارسطو
وأفلاطون وديكارت ونيشه و ... و ... (أيها الزملاء الأعزاء .. ان
موسماً تمارس الحياة هي خير منا جميعاً .. سترقبون الليلة مشهداً لم نعلموا
بمثله ، ستندهون أيامكم التي ضاعت كما أندبها الآن ، لم يتبق لي سوى
يومين فقط) !

السريـر في منتصف الغرفة كما أمر ...

يفتح رزمة الأشياء التي جلبها معه ويخرج منها قطعة قماش كبيرة
من المخمل الأسود الناعم . يغطي بها السريـر حتى الأرض من جوانبه
الأربعة .

النور الأبيض على مكتبه يضئ قوياً صافياً من أجل الحروف التي طالما
سهر الليالي يفك طلاسمها وأسرارها . هذا النور الأبيض كان صديقه
الوحيد ذا المكانة الكبيرة .. يتأمله بحقد .. يضع الى جانبه مصباحاً بشكل
أقصى في فها نور أحمر .. يشعل النور الأحمر والأبيض .. يتأمل ضيق
المصباح الأبيض من زحف الأفي واللعة الحمراء بين أنيابها .. يحيل اليه
ان صديقه القديم الأبيض ينظر اليه مؤنباً مستجدياً . بحقد شيطاني ينتزعه

عن المنضدة ويرمي به من النافذة .

تسقط الغرفة في شرك النور الأحمر الباهت. بسام يتأمل الأفق بشوق..
أيها الآلهة ، لماذا تأخرت ؟ لماذا لم ترشدني الى التفاحة منذ زمن بعيد؟
قرع خفيف على بابه .. يسرع .. ينتحه .. أنوار في ثوبها الضيق
كجلدها او أضيق قليلاً عند الحصر ، أنوار جاءت تحمل اليه شلال الدم
والتفاح على كتفها . تدخل .. تجمد وهي تتأمل الغرفة ، الكتب التي
تغطي الجدران ، الفراش الأسود من المخمل ، الشراب في الركن ،
والضوء الأحمر الوثني تنفثه الأفق كالمس المنعش .. وقبل أن تلتفت اليه
ودهشة جزعة تغطي ما لم يغطه الكحل من عينها ، تحس بوجهه قريباً ،
الى حد تعجز عن رؤيته بدقة .

(يا امرأة توقف الحزن والحسرة والحزن ، يا عطر غابات مشحونة
بالتأوه والنعاس ، أريدك على المخمل الأسود عارية كالفجر ، لؤلؤة
وحشية البياض وحشية النعومة ، وحشية الجوع والعطش ... فجوعي
يا غريبة لن يشبعه إلا جوعك ، وعطشي لن يرتوي إلا من عطشك)...
وكانت يده الكبيرة ترحف وتفرق في شلال الدم والتفاح . أصابعه
القوية ترفع وجهها اليه .. يتأملها بعبادة حاقدة :
(أود لو أمتص من شفئك حياتك كلها لتكون لي .. أنا .. أنا) ..
تتطلع الى عينيه متسائلة ضارعة ... وهنا ، هنا فقط يحدثها ككاهن
صابيء ...

أنوار .. أريدك هنا على المخمل الأسود لؤلؤة وحشية البياض وحشية
النعومة وحشية الجوع والعطش ... ولكن .. حذار من أن أنام .. حذار
من أن تسمح لي بالنوم ثانية واحدة .. وإلا ..
تقرب منه وقد غيرت تعابير وجهها بسرعة كما تغير الأفق جلدها -
كانت تهمس ، وكان أحلى ما في همسها انه غفمة غير مفهومة .. أمسى

يعبد الكلمات التي لا تقال ، الكلمات الهوج التي تتساقط في ضمير الليل
كدموع الأشجار المدارية ، غامضة ، ومن الأعماق ..

أنوار تتمدد على المخمل الأسود قارة ملذات من المخمل الأبيض ..
وهو يجلس الى جانبها ، يدفن وجهه في رقبتها بمشروع حقيقي .. لا يريد
الجلد ، لا يريد اللحم ، لا يريد التفاح والدم ، يريد أن يشم رائحة
الحياة التي تفوح من مسامها حارة وديعة كأفئاس طفل .. يريد أن يشم
الفصول الأربعة في عبقها ، يريد أن يشم الخلود ، لماذا عليه أن يمضي ؟
يمد يده ويجذب المنضدة المتحركة الى جانب الفراش . يملأ لنفسه
كأساً وتهض أنوار قليلاً لتتناول كأسها .. رفوف الكتب التي تغطي
الجدار وراءها تلتصق فجأة ، ويرى آلاف العيون الصغيرة المحشوة فيها
تأمله باستنكار وحقد ، يثور الدم في أوداجه ، أما زلتم أيها الفلاسفة
مصرين على أسطورة الخداع المقدسة ؟ والطين أيها الحمقى ، والطين الذي
يجوع ويشتهي ويحقد ، والطين الذي هو أنا ، لمن ؟ للديدان ؟ وجسد
هذه المرأة الخالدة لمن ؟ فلتحديق عيونكم المتكبرة الجائعة ! ستشاهدون
بعد قليل حضارة الانسان المحمومة الحقيقية . سأكرمكم بأن تشهدوا هذا
اللقاء المقدس .. وستبكي عيونكم هذه لحظات العمر الذي ضاع .. وما
تبقى من عمري .. لن يضيع !

يسكب النار في جوفه مرة واحدة ثم يضع كأسه جانباً بالقرب من
كأسها .. يأخذها بين ذراعيه ، طرية هشة تحب أن تسحق ..

يضمها اليه امرأة توظف الحزن والحسرة والحنين ... يفرق في دوامات
حارة عجيبة .. يشم عطر غابات مشحونة بالنعاس والتأوه .. الزمن حفة
من الرمل تنزلق برعونة من بين أصابعه كلما شدد قبضته عليها .. الرمل
ينزلق بسرعة لأنه سعيد .. ينزلق بسرعة .. بسرعة .. والعيون المكلمة
بين رفوف الكتب تستدير وتحمّر .. ثم تدمع لأنه ليس لها جفون تسبيلها
كهي لا ترى ..

والضوء الأحمر يرتعش ، يلتهب ، يرتجح .. يبدأ بالذوبان حينما
تسلل خيوط الفجر الأولى من النافذة .. وبسام يلهث متعباً ، مستريحاً ...
ويتأمل وجهها المدفون في شلالات الدم والتفاح .. عيناها مغمضتان ..
شفاتها شهيتان منهكتان تعبها يثير النشاط في أعصابه .. أنفاسها تنتظم
كأنها تكاد تنام .. وإذا نامت وهجرته الى تلك الشواطئ المجهولة ،
كيف يبقى وحده والشمس لما تطلع ؟ وهذي العيون الحاقدة بين رفوف
الكتب، سوف تقفز حوله كأقزام خيفة وتغمره ، وزجاج المصباح المكسور
سوف يتوهج في عينيه وينغرس فيها ، وذلك الصوت المرعب سوف
ينطلق من كل مكان ليقول له كما في كل ليلة: ستموت .. انه خائف ..
خائف .. أنفاسها انتظمت .. لقد نامت .. هربت منه وتركت جثتها ..
والعيون بدأت تقفز من الرفوف ... سوف يصرخ ... لا .. سيوقظها ...

يهزها بعنف ، بعنف انسان لم يقض الليل متعباً قارة اللذة .. تفتح
عينين بلهاوين وتسأله بضيق : ما بك يا بسام ؟

— أنوار .. أرجوك .. لا تنامي ...

— انني متعبة جداً ... اسمح لي بخمس دقائق ..

— لا .. لا أستطيع ..

تحقق الى وجهه بشيء من الرعب وكثير من الدهشة : ماذا بك ..

— آه .. عفواً .. لا شيء .

— دعني أذهب الآن ..

— لا .. لا تذهبي ... استريحي هنا ..

تتمدد من جديد بلهاء تثير حقهده .. فلتبق ولو نامت .. إنه لن يكون
وحيداً على الأقل .. سيظل يتأملها حتى يطلع الفجر .. كم يخاف الليل ..
هذه الغابة من الشعر الأسود الكثيف التي تسد لها السماء على خد المدينة
وفي طبائنها أصوات خيفة ، همسات القدر ..

النور الأحمر يكاد يذوب نهائياً . والفجر الرمادي يصبغ كل شيء
ببريقه الفضي المتعب كبريق عينين مريضتين بالحلب .. يحس بأنه متعب ..
متعب .. أمواج شاطئ النوم تمتد إليه .. الى قدميه .. الى صدره ..
الى رأسه .. يكاد يستسلم للنوم يحرقه الى كهوفه المخيفة حيث يسمع
الصوت الرهيب كل ليلة ..

ينتفض مذعوراً .. لا .. لن ينام .. ينهض .. يستند الى النافذة
المرتفعة ويتأمل المدينة التي بدأت ملامحها تتبدى في النور الشاحب .. قطعان
البيوت والأشجار والشوارع اخاذة .. هذه المدينة التي تشمل في أحضان
دفع الربيع تشيره .. يحسها شابة تتعري لصدر السماء وتمدد مستسلمة
متطلعة الى أصابع الشمس التي ستجوس فيها بعد ساعات شراً شراً
وحجراً حجراً .. اني أكرهك أيتها المدينة ... ماذا منحني ؟ لقباً ؟
كرسياً في الجامعة ؟ سمعة طيبة ؟ مدارج أتحدث فيها ، وأذناً تنصت
لسخافاتي وسخافات الأولين والآخرين ؟

(ماذا منحني ؟ كنت أتحدث عن الحياة ولم أكن أحياء .. وكنت
أفلسف الخلود وما كانت عطايك لتخلدني أكثر مما تخلد صغير قطار يعبر
إحدى محطاتك .. منحني الشهرة والزيد ، خدرني ، وظللت هكذا بلا
امرأة ، بلا ولد ، فيلسوف اللاهوت ، وظللت وحيداً ، دودة تتطفل
على فتات الحياة ، وخادمتي الحقيرة كانت أكبر مني .. لقد صنعت
ولداً ... شيئاً حياً) ..

الضياء بدأ يشع من المشهد المنبسط أمامه ، مشهد مدينة تأهبت لليقظة ..
يحس بعنكبوت عملاقة تقبض على قلبه وتملأه بسم محزن عجيب ... لكن
المدينة لا تبالي .. تزداد استسلاماً للصباح الشاب الذي أطل من حواشيه ..
أيتها المدينة اللامبالية .. أنت مستمرين هكذا مضيفة مزدهرة ، سيظل
الحريف يعري أشجارك، وسيظل الشتاء يمسح صدر شوارعك بيده الثلجية،

وستظل الضحكات والأحاديث والقبل المختلصة تضيء في زواياك المعتمة ..
أما أنا فسأمضي ، والجمرزة التي كتتها ، لم تترك وشماً على أي قلب ،
عاشت في الرماد ، وماتت في الرماد ، وبنت في الرماد قصورها المهلمة
كأعشاش النور المستباحة ..

حقد حقيقي أسود يتفجر من عينيه .. يحس بحاجة مرعبة الى أن
يحطم شيئاً .. يتمنى لو انه يتحول الى قدم شيطانية ضخمة يدوس بها
هذه المذبذبة كما لو كانت مجموعة من النمل ، يدوسها ، ويسحقها مع
التراب والصخور .. يلتفت وراءه ويراه ، أنوار ، قارة النسيان واللذة ،
تغفو على المخمل الأسود بوداعة واطمئنان .. يكرهها .. يكره هذه
الوداعة ، هذه الطمأنينة ، وهذا الاسترخاء .. يا امرأة رخوة كالقوام ..
يا لحماً بلا نبض ، بلا افعال .. أنت سوف تحلدين بعد ما أمضي ..
أنت والغربان والضجيج .. وأنا سأمضي بعيداً أحمل أعماقي المعبدة .. لماذا
يا ضحلة كالمستنقعات لا تتألين ؟ كيف لم يهرم وجهك في ثانية لما رأى
رعب وجهي ؟ أي عدل يمنحك الحياة ليغتصبها مني ؟ اني أكرهك ..
يتأملها وكأنه يود لو يغرس نظراته المسمومة في لحمها حتى يسيل الدم
ويغسل قلميه .. تفتح عينها فجأة .

حينما ترى نظراته المرعبة التي يصوبها نحوها .. تنقلص عضلات خديها
في ذعر ، وتلتفت حولها كأنما لتتأكد أين هي .. آثار الليلة الماضية مبعثرة
حول الفراش الأسود ، قبيح مشهد منضدة الطعام بعد الوليمة ، يشتر
الاشمئزاز والحجل . يبدو انها قد اعتادت المشهد ، وحتى النظرة في عيني
الرجل الواقف أمامها اعتادت القرف المنسكب منها .. أما ذلك الحقد ،
فهو ما تعجز عن فهمه .. تنهض وتلمم أشياءها المبعثرة ، وتحاول أن
تصلح هيشها بسرعة .. يظل يتأملها بشراسة منوم مغناطيسي وهو يقترّب ،
شيء في عينيه يخيفها . شيء أسود حاقد .. تهتف بلهفة : سأذهب ... لا

يجيب ، يسجن يدها في قبضة قوية كحديد السجن .. سأذهب .. لا
يجيب .. تصرخ بلذع : دعني أرجوك .. لقد آلتني ... يرتعد .. لماذا
لا تموتين معي أيتها المرأة ، لماذا يا قارة اللذة والنسيان لا تشاركين انساناً
نعيساً مصيره .. كوني شيئاً حقيقياً مرة واحدة على الأقل .. تصرخ
رعياً وهي ترى الشياطين ترقص في مسامه : دعني ... دعني أذهب ..
يتنفض فجأة وكأنما أيقظه صوتها المسعور ... يهذي : اذهبي أيتها البعوضة ..
الآلهة يموتون .. وأنت والهوام والديدان ... تعيشين ...

يفرق في دوامة من التعب البائس بعد أن تمضي .. لا .. لن أنام ..
لن أستسلم لليأس ، سأعيش ما تبقى من أيامي ثانية ثانية .. حمام دافئ
كفيل بأن يعيد لي حيويتي .. يقرع باب غرفة الخدم .. تنهض العجوز
وتفتح الباب نصف نائمة ..

- نعم يا سيدي ؟
- لماذا هذا النوم كله ؟ انهضي وجهزي الحمام لي ..
- أمرك ..
- تدخل الى المطبخ وتخرج وقد حملت بيدها سلة صغيرة .
- قلت لك جهزي الحمام .. ماذا معك ؟
- سلة .. سأملأها بالخطب ...
- بالخطب ؟ ولماذا الخطب ؟
- لأجهز الحمام ..

يتحدث ببطء مجنون بارع الذكاء : لا .. هذه المرة لم يعد دفع
الخطب يجدي ... هذه المرة سأغسل بما لم يخطر لمخلوق .. اسمعي ..
جهزي لي الحمام بالكتب ... خلدي الرف الأول الى اليمين من المكتبة
واحرقى كتبه في موقد الحمام كتاباً كتاباً .. وإذا لم يكف خلدي الثاني
والثالث .

لا ريب في أن سيدها قد جن . لا دخل لها به ، ستمل ما يقول ...
— أمرك سيدي ...

يتجه الى الشرفة ضاحكاً .. وهكذا سأستحم اليوم بديكارت ، ونيتشه ،
ولالو ، وغوستاف لويون .. هذا رائع .. سيدركون جيداً بينا أنا أسفح
الماء الدافئ أنهم لا يصلحون إلا لهذا .. هذا الحمام العبقري يستحقه عبقرى
مثلى لن ينام، ولن يضيع ساعاته القليلة الباقية ... لم يتبق لي سوى يومين ..
وليلة واحدة .

يخرج من حمامه بعد أكثر من ساعة نشيطاً مرحاً .. قبل أن يتجه الى
غرفة نوميه يقف أمام باب المكتبة ويتأمل الرفوف الثلاثة الفارغة، ويضحك
بلووم .. كان ألد حمام عرفته في حياتي ..

يقف قليلاً أمام المرأة ويتحسنى وجهه .. لا يستطيع أن يصدق أن
الديدان سوف تغزو هذا الوجه وتخرج من بين هاتين الشفتين ومن فتحتي
المنخريين، لن يصدق أنها ستحشو هذا الشعر التنظيف والحواجب يبيوضها
وأقلدأرها .

لا .. هذا مستحيل ..

يسقط في مقعد مجاور ، ويضع رأسه بين كفيه وهو يتأمل : ماذا
أفعل اليوم ؟ لماذا لا أذهب قليلاً الى الجامعة وأرى سلمى للمرة الأخيرة ..
سوف أأخذها قليلاً وأتلى بذلك .. سأأخذ الجميع ... اني أحقد عليهم
جميعاً ... القطيع اسطورة ، اني لا أنتمي الى أية جماعة .. اني وحيد ،
وسأمضي وحيداً .. ولكن ، لماذا سلمى ؟ ان رفاه أكثر جمالاً ونضجاً ،
وقد قالت لي البارحة انها لا تحب خطيبها وانني أكثر رجولة .. الحسدر
يستولي عليه .. رأسه يسقط بين يديه ويروح في الخفاة عميقة .. عميقة ..
أخفاة أشبه باليقظة منها بالنوم ...

احساسه بالأشياء مرهف وحاد وهو يرى انه يسير في صحراء واسعة

لا نهاية لرمالها .. لا نهاية لصمتها ولكآبتها ... الرمال رمادية والسماء رمادية وليس فيها نجمة أو شمس أو قر وليس في الرمال آثار أقدام ، لا شيء سوى الرياح التي تبعث بكثبانها كأفانج لا مرئية : لا صوت سوى همهمات الرياح التي تشبه ندباً أبدياً على وثيرة واحدة ...

وفجأة يرى أمامه ساقين من الحجر ، ساقين هائلتين وبالقرب منها حطام تمثال رجل لم يبق منه إلا وجهه مهشم ويد ضخمة بالقرب من الوجه ذي التقطبية المرعبة .. ويقرأ على قاعدة التمثال : « أنا اوزيماندياس ، ملك الملوك ، أيها العظماء والصعاليك انظروا حولي ما بنيت ، انظروا الى آثارني التي ستخلدني أبداً ...

انه التمثال نفسه ، تمثال اوزيماندياس الذي سبق له وقرأ عنه في قصيدة لشيلي .. والصحراء نفسها .

ويتلفت حوله الى الصحراء الواسعة ليرى ما بنى اوزيماندياس ملك الملوك ، ليرى آثاره التي تخلده .. لا شيء .. لا شيء سوى الرمال البله الممتدة من الأزل الى الأبد .. لا شيء سوى الصمت المجنون الذي يقطعه صغير الرياح النادبة .. وفجأة يحس بدعر رهيب .. يريد أن يركض ، لكن أقدامه مسمرة .. يريد أن يصرخ ، أن ييكسي ، لا أحد ، لا انسان .. السماء خرساء ورمادية يصرخ بها : ما الحقيقة ؟ قولي يا سماء ، يا قناع القدر الرمادي ...

وفجأة ، يسمع صوتاً كثيفاً خشناً ، صوتاً رهيباً كصرير أبواب مقابر أثرية صدئة لم تفتح منذ عصور .. يقول الصوت : ستموت ... الموت هو الحقيقة الوحيدة ...

يعول منتحباً : متى .. متى ..

يقول الصوت : ستموت يوم ولد الربيع وفقاً لما هو في كتبك .. ستموت يوم ولد الربيع .. ستموت قريباً ...

ويتلفت حوله .. من أين ينبعث الصوت ؟ من أين ؟ ويدرك بقناعة
تامة ان الصوت ينبعث من رأسه .. منه هو .. ويتمنى لو يمزق نفسه ،
لكنه يظل يسمع الصوت مقنعاً بلا دليل ، مؤكداً بلا برهان ، وبحس
بكثافته ، وبحس انه يصدقه ويصدق .. ويرى انه يجلس عند قاعدة
التمثال ، ويرى قاعدته تتحول الى ملايين الرفوف التي تضم ملايين العلوم
والكتب ، وملايين العيون لفلاسفة وأدباء وعلماء مضوا .. ويرى وشمساً
حاداً عميقاً كوشم من جمر كتبت به كلمات اوزيماندياس : « انظروا
حولي الى ما بنيت ، انظروا الى آثارى التي ستخلدني أبداً » . وحول
التمثال لا شيء سوى الرياح تصفر ، لا شيء سوى الرمال المفتتة الهشة ...
وينفجر باكياً بحرقة ، بحرقة أجيال من الرجال الذين ماتوا ونحولوا الى
حرف أبله ، الى جمره مطفأة على قاعدة التمثال ... ويتحبب ... والصوت
يخرج من عظامه ومن أعماقه ، ويرتعد كأنه هو نفسه تحول الى ذبذبات
ذلك الصوت الجبار الرهيب ...

يستيقظ . يجمل عينيه في الغرفة . كل شيء ما زال في مكانه ، كما
كان لما خرج من الحمام واستسلم لمقعده . لقد هرب من ذلك الصوت
الليل بطوله ، يبدو ان لا مفر .. حتى في ساعات القجر الأولى ، حتى
لو أشرقت الشمس من وصادته لظل يرى الحلم نفسه ولظل الصوت الرهيب
هو هو والصحراء هي هي ..

بشراة ، بتأمل خيوط الشمس الأولى التي تنحس بجانب غرفته ،
بأسمى حقيقي يحس بالدفع يسري في عروقه ... (لقد نضجت الشمس ،
وبعد غد يولد الربيع وأموت أنا حينما ينتشر الشبان والشابات في الدروب
يقطفون الربيع عن الأرصفة المشمسة) ... يغمره حقد حقيقي ، يستحيل
صدره الى بشر مهجورة ، تنمو فيها أنياب مرعبة يكسوها لعاب
الحقد والشهوة كسم فتاك .. يكرههم ، يكرههم جميعاً أولئك السعداء
الذين لن يموتوا ما داموا لا يعرفون مني يموتون ... (اني أكرههم ،

ماذا أنا سوى هذه الأثياب الشرهة التي سأغرسها فيهم جميعاً قبل أن أمضي) ..

يقفز من مقعده ملسوعاً . يرتدي ثيابه بسرعة . يخرج دون أن يتناول طعامه . من جديد تضعيع السيارة في الدروب التي ضاعت فيها منذ ساعات في الليل . لماذا يتسكع ؟ انه يعرف هذه المرة الى أين يذهب .. وهو يخاف أن يذهب .

(سأرى المكان الذي سيلقون بي فيه بعد ان أموت . المقبرة) .. يكره المقبرة .. عبثاً يحاول إقناع نفسه بأن الموت أمر عادي ، مجرد انتقال من دار فخمة الى دار حقيرة ، مجرد ترحال من مدينة فيها حي غني يقطنه الأغنياء وحي فقير يقطنه الفقراء الى مدينة لا أحياء فيها ، بيوتها متشابهة ولا شيء فيها سوى البيوت ، لا مدارس ولا معابد ولا ملاه ، حتى ولا شوارع لأن أهلها لا يتزاورون .

الى المقبرة يصل . يدخل بسرعة ويتأمل كل ما حوله .. عشرات القبور الخائنة وقد انبسطت تحت سماء الربيع الصافية ، عشرات الأكوام من التراب الأصفر ، عشرات الظهور المحنية كأنما خوفاً من سوط جبار ظالم .. يسير بين القبور ، يراها كما لم يرها من قبل ، ينظر اليها بطريقة جديدة ، تخيفه الحشائش التي تثبت على القبور ، تخيفه ، يخيل اليه أنها شبكة من الأعصاب والأوعية الدموية للرجل المدفون تحت القبر ، شبكة جديدة خضراء بسيطة .. يقف أمام أحد القبور يتأمله .. دون وعي منه تمتد يده الى الحشائش التي تثبت من أعلى القبر ، يقطف ورقة ويخيل اليه انه يسمع أنين المدفون في الأسفل ... آه ... ترى ما لون الحشائش التي ستنبث غداً على قبره ؟ سوداء .. ستكون سوداء حقاً ، كحقدته ، كأثيابه ، كعبثه ..

يقرب منه رجل رث الثياب يحمل في يده رفشاً ، ويتجول بين

القبور بلا مبالاة عجيبة ، كأنه راعٍ عجيب لقطع يفترسه الطاعون ..
انه الحفار ، فليعد منذ الآن قبره .. يقترب منه .. صباح الخير كلمة
سخيفة هنا .. هذه المدينة لا تعرف المجاملات .. يقول له بلا مقدمات :
أريد قبراً ..

— حاضر ، من رخام أم تراب ؟ ما طول الشاهدة ؟
يفيظه جواب الحفار العادي .. لماذا لم يسأله لمن القبر ؟ لماذا لم يبد
دهشته من أن يشتري هو ، الشاب القتي ، قبراً ؟ لماذا لم يقل له ما زلت
صغيراً ولم يحن وقت شرائك قبراً ؟
— أريده من رخام .. وله شاهدة مرتفعة .

يتأمله الحفار بازدياد وهو يقول : ثلاثمائة ليرة .
يتذكر يوم اشترى بيته الذي يقطنه .. كيف سأل عن (الشوقاج)
وعن الكاراج وعن المصعد و ... و ... هذه المرة لن يقول شيئاً ...
لا يدري ما قد يحتاجه فيما بعد ، يوم يموت ..
يدفع جزءاً من المبلغ للحفار : أريده غسداً مساء .. يجب أن يكون
جاهزاً بعد غد .

يهر الحفار برأسه موافقاً واللامبالاة ما زالت تغمر ملامحه . يتركه
الاستاذ بسام ويسير بين القبور راجعاً الى سيارته وضيق عجيب يطبق
على عنقه ... عيناه تتأملان التراب في حسرة ، التراب الميت ، التراب
الرخو .. غداً يكون من بعضه .

يخرج من المقبرة ويعدو نحو سيارته . ينطلق بها نحو الجامعة .. يمر
ببيت أخيه . سوف يصعد قليلاً . سيدعو أخاه وزوجته الى العشاء غداً ،
يجب أن يكونوا جميعاً حوله حينما يموت ..

يصعد السلم بسرعة . يقرع الباب . لحظات . تفتح الباب امرأة سمينة
جميلة الوجه ما زالت في ثياب النوم ..

تقول والنعباس ما زال يتمطى في ملامحها : أهلاً وسهلاً تفضل ...
يدخل ورامها الى غرفة الضيوف .. يجتلس نظرة الى الباب المفتوح
بينما هي تقول : « لحظة واحدة ، سأوقظ أخاك .. لقد تأخرنا في سهرة
البارحة .. »

نظراته المختلطة الى الباب المفتوح تتحول الى وجهها ، الى رقبتها
التي تبدو له حارة مكتنزة ، الى الانحدار الشهي لصدرها تحت الثوب ...
يقترّب منها والأنياب الشرهة في صدره تصطك وترنّجف ولعاب الشهوة
الحاقدة يسيل منها .. يقبلها من عنقها .. من منبت شعرها الذي يرفعه
نحو فم رأسها بيده القوية .. نهمس مرتبكة : « أرجوك ، لا داعي
لذلك الآن ، سأجيبك كالعادة بعد أن يذهب الى عمله ... لن أتأخر
عليك » .. ما يكاد يفلت شعرها من بين يديه ، ويزيح وجهه عن
عنقها حتى يرى أخاه واقفاً أمام الباب وفي عينيه نظرة لا تعبر عن أي
شيء .. تراه رأتاً ؟ لا يدري .. وجهه كوجه حفار القبور ، لا تعبر
فيه ولا إحساس ..

— أهلاً وسهلاً بسام ... كيف صحتك ؟

— خير من قبل ..

— لقد حدثني الدكتور دريد عنك وقال لي إن قلبك متعب جداً
غريب النبض ..

— لا أهمية لذلك ..

يهتف أخوه في ضيق يحاول كتمانها : « لكنك زرت الاستاذ منذر
منذ أيام » ..

يقاطعه بسام غاضباً : « هل قال لك شيئاً ؟ »

— لا .. لا .. أبداً ... كل ما قاله لي هو أنك زرتني ، وكنت
متعباً .. لا .. لم يقل أي شيء آخر ...

- حسناً .. جئت أدعوك الى العشاء أنت وناثلة ... غداً في الثامنة
أرجو أن تكونا عندي .. هنالك مفاجأة كبيرة لكما ..
- آه .. شكراً .. شكراً لك ...

يتقدم نحو الباب ليخرج .. تهتف ناثلة بطريقة رسمية أمام زوجها :
« لحظة واحدة يا أستاذ بسام ، فنجان قهوة فقط » .
زوجها يتأملها وابتسامة (شيلوكية) ترسم على شفثيه .. يهتف بسام
بشيء من الحشونة دون أن ينظر اليها : « لا .. شكراً .. يجب أن
أصل إلى الجامعة ... لديّ درس » .

بينما هو يخرج يكاد يتعثّر بابن أخيه الذي ركض من إحدى الغرف..
(هذا الطفل الرائع أحقد عليه أيضاً .. هذه البلهاء جاءت به .. وأخي
الحقير منحها إياه .. وأنا .. أنا وحدي عجزت عن الأخذ والعطاء) ..
يصفق الباب وراءه بشراسة .

حينما يدخل من باب الجامعة ويرى الطلاب في الحديقة كالشتول السعيدة
المتلذذة أماً بالحياة والنمو ، يحس من جديد بالأنياب التي في صدره
تكاد تنغرس فيه وتصب فيه سمها .. يوقف سيارته ويهبط منها متجهاً نحو
الدرج ... تلتقي نظراته بنظرات إحدى طالباته ، سلمى . سلمى بشعرها
الكسنتائي الشهى كقرص من شهد .. سلمى وعيناها العذبتان كبيركتين من
عسل .. هذه الفتاة العذبة الهادئة لا يدري لماذا يرتجف كلما رآها .. كلما
حدثته .. انه لا يحس بالارتياح اليها .. لا يحس بالارتياح الى صوتها
الساخر دائماً ، وحديثها القاسي ... لا يرتاح الى هدوئها وصمودها ..
ووجهها الذي يظل ساحراً غامضاً رغم الكلمات الجارحة التي كان يوجهها
لها دوماً .. رغم كلمات الحب التي تغمره بها هي .. لا يدري لماذا يحس
انها وحدها تخدعه بينما هو يخدع الناس جميعاً .. هي وحدها تعذبه كالموت،
بينما هو يعذب الناس جميعاً ..

تهز رأسها وتحببه بينا هو يتجه نحو مكتبه ومنه الى غرفة الأساتذة ..
يرحب به زملاؤه بشيء من الفتور ، سوف يصطنعون البكاء جميعاً
حين يسمعون بوفاته وبالبلغ الذي تركه لكل منهم في وصيته .. لن يدركوا
انه يخدعهم .. يشتري دموعهم وتمثيلهم .. يدفع لهم لقاء مسرحياتهم
الحقيرة .. يريد أن يبدوا جميعاً حزينين يوم يموت .
يحين موعد الدرس . ينهض الأساتذة الى صفوفهم ... لا يشعر
برغبة في الدخول الى الصف .. لا يهمه ما قد يقولون .. هذا يومه
الأخير ..

وحيد في غرفة الأساتذة . الباب يقرع . سلمى تدخل . تواجهه
بنظراتها التي يخيل اليه انها غامضة مداهنة ... يتأمل ساقيها بإعجاب
حقيقي ... ما اجملها .. لماذا لا يرتاح اليها ؟
- ماذا تريدان ؟

- اني بشرق اليك ... لماذا تنصرف هكذا ؟
لا يدري لماذا يشعر انها تسخر منه ، يهتف بقسوة : هذا شائي ...
- أين سهرت البارحة ؟
- لا دخل لك بذلك ..
- لا دخل لي بذلك لو لم تقسم لي منذ أسابيع على الوفاء .. لو لم
تطالبني بأن أخلص لك أنا أيضاً ..
- وهل أنت غلصة ؟
- أجل . أنا لا أكذب ..

تغيظه هذه الصراحة في الحديث .. انها تفوت عليه لذة خداعه لها ..
انها ليست انثى كاللواتي عرفهن .. انها لا تشبه أنوار ، نائلة ، رفاة ،
انها انثى من نوع جديد ، لم يعد لديه وقت ليعرفها ، ليت القدر يمهله
ليبدأ معها تجربة طريفة من نوع جديد ..

لماذا لا يقول لما كما قال لمن جميعاً : « اسمعي يا سلمى .. ساموت
غداً مساء .. وقد أوصيت لك بمبلغ كبير » ..

تشهق ، يرتسم الحزن في ملامحها ، يا للمخادعة الصغيرة !
- لقد أوصيت لك بمبلغ كبير .

تصرخ به : انك حقير ... لم أكن أبيعك حبي .. أبداً لا أريد
منك ثمناً ..

هذه الممثلة ، تصر على ارتداء قناعها واستمرار المهزلة حتى النهاية ..
سيخرجها : إذن قولي ، ماذا كنت تريدني ؟

- كنت أتمنى أن تحبني حقاً .. ان أكون زوجتك وان أمنحك
طفلاً ..

- سلمى ، هل تحبينني حقاً ؟

- أجل ! أحبك ..

- تعالي إليّ غداً مساء في الساعة .. تعالي في الساعة .

- سأجيء ، وأرجو أن ينتهي هذا البؤس كله .

تركه وتمضي .. تخلف له رائحتها ، وعدوبة برك العسل في عينيها ..
انه يحبها ويكرهها بطريقة ما .. يعود الى داره منهكاً .. يأكل بشره
ولذة .. يأوي الى فراشه .. سينام ما دامت الشمس تتسكع في السماء ،
سينام ما دام النهار مسيطراً لأنه لم يحدث أن رأى الحلم أبداً أكثر من
مرة واحدة في اليوم الواحد .. قبل أن يغمض عينيه ، يرفع الساعة
ويتحسس الأرقام بأصابعه ويدير أحد الأرقام ..

- ألو .. من المتكلم ؟

- رفاه ؟

- أجل ! من ؟

- أنا بسام ..

- بسام ، أهلاً ، صوتك متغير .. هل أنت مريض ؟
لا ريب في أنها تسمع صوت اصطكاك الأنياب الجائعة في صدره ..
يجب أن يكون أكثر حذراً .. يقول لها في لهجة جهد أن تكون رقيقة :
أجل أنا مريض .. مريض بالشوق اليك يا حبيبي ..
تضحك بطريقة يقشع لها بدنه اشمئزازاً وشهوة ، ثم تهمس كما
تفح الأفي : أنا على استعداد لأن أشفيك ..
- متى ، متى يا حبيبي ؟
- بعد ثلاثة أيام يرحل خطيبي ، وسأقضي معك ليلة رحيله .. سوف
تنسيني إياه .. أليس كذلك يا حبيبي ؟
- طبعاً .. طبعاً .. ولكن بعد ثلاثة أيام ، مستحيل .. أريد أن
تحضري الليلة .. ألم أقل لك أنني سأموت غداً مساء ؟
تضحك بطريقة تثير حقه .. هذه التافهة ، كيف تضحك ؟ لكنه
على أية حال يفضل أن يقضي ما تبقى له من الوقت معها لأمع سلمى ..
إنها تريحه .. يجب أن يخطفها من خطيبها بينما هي تعذب دون أن تقوى
على مقاومة سحره .
- رفاه ، حبيبي ، أريدك الليلة ، الليلة قبل أن تسقط الشمس وراء
أسوار الأفق ، الليلة تعالي ودعينا نشهد المغيب معاً من الشرفة ..
- ولكن ...
- أرجوك ، قبل المغيب ..
- حاضر ، لن أتاخر .. من أجلك ...
- شكراً يا حبيبي سأقول للخادمة بأن تتركك تدخلين الى غرفة
نومي حينما تحضرين ..
- سأوقظك بطريقة لم تحلم بها .. وداعاً ..
تغلق سماعة الهاتف .. آه يا امرأة ، يا قارة النسيان واللذة والحبث ..
كم أعبدك !

قبل أن يغمض عينيه لينام يتصل بالدكتور دريد ويدعوه الى العشاء
ويرجوه أن يبلغ هشام ، و منذر ، ذلك .. يغلق عينيه لينام ،
ولكن ...

لماذا نيام ؟ غداً يرحل الى براري النوم الأبدي ، حيث الرياح مخدرة
والصمت الرمادي يسود العالم .. غداً في ذلك القبر الصغير يسجن وراء
أسوار تلك المدينة العجيبة، وقد نمر سلمي تتأبط ذراع رجل ما ويضحكان
وهو يسمعها ولا يقوى على ان يقول شيئاً .

تهدهده أفكاره الحزينة كأنها انشودة بحارة استسلموا لضياهم في
البحر .. موجة النوم تختطفه عن شطآن البقعة ، تغمره بالنسيان ، يرحل
معه الى حيث لا يلري ..

يفتح عينيه ، رفاه تقف أمام فراشه ، وفي عينيهما الحضراوين تألق
عجيب كالبرق .. لا ، لم يكن صوتها الذي أيقظه ، كانت نظراتها ..
نظراتها التي اخترقت جسده الممدد وعينيه المغمضتين . رفاه فراشة عجيبة
الجمال ، وأضواء ساعة الغروب تصبغ وجهها ورقبتها بحمرة مشرة ..
يمتلئ قلبه بجزع جائع .. ما أحل العالم والمرأة في الغروب .. لماذا لم يكتشف
هذا من قبل ؟

ينهض من فراشه بنشاط . يضمها اليه ويتحسسها .. هذه القامة الطويلة
بتناسقها العجيب ، لم يكن ليصدق من قبل ان المرأة تشبه تماثيلها الرائعة
الى هذا الحد .. تشده من يده الى الشرفة العالية ، الى حيث يقف ليتأمل
الغروب بفجر ينابيع الدم في الشوارع والسطوح والنوافذ ويصبغ المدينة
بها .. الشمس تختفي وقد خلفت وراءها بقعاً من الغيوم الدامية التي تبهت
شيئاً فشيئاً .. والظلمة تحمل شيئاً فشيئاً .. ورفاه ، يحسها تنزلق من بين
ذراعيه شيئاً فشيئاً .. كأن هاتفاً ما يناديه وهو لا يملك إلا أن يلي النداء ..
كأن عليه أن يلتحق بالشمس الغاربة، يستحيل الى نقطة ملتجة في موكبها

الرائع ، ثم يهوي على تلة ما فزة من رماد ... يشد رفاه اليه بقسوة ،
يريد أن يتمسك بالمباهج التي تحملها .

— رفاه .. أحبك ، أتمنى أن تظلي معي ..

يسمع صوته وهو يقول هذا .. لماذا يكذب ؟ يعرف انه لا يحبها ..
لكنه يحب أن يخدعها ، يحب أن تخبه ، أن تتخلي عن خطيئها الشاب
الرائع ، من أجله هو الكهل الميت ..

— وأنا أيضاً احبك .. لقد تخليت عن خطيبي الشاب الذي كان يحبني
من أجلك ..

تقرب منه بوجهها الملتهب كطبق من جمر .. يقبلها ، يود لو يسرق
من شفيتها عمرها كله .

— هل ستزوجني ؟

— أجل .. أعدك بذلك ..

— متى ؟ قل لي متى ؟

— أعدك بأن أعلن خطبتنا بعد غد !

— بعد غد !! تعني يوم السبت .

— أجل ! أعدك بذلك ...

على الأريكة تتمدد وتجميل عينيها في الشرفة التي ستكون لها ذات يوم ..
تبدو سعيدة . وهو أيضاً سعيد .. سعيد بخداعه لها .. غداً يموت ، وبعد
غد ستكتشف انها فقدته ، صارت أرملة روحية ، سوف تبكيه طويلاً
كأوفى زوجة . ولن تعود الى خطيئها أبداً ..

لقد ترك بصماته عليها ، آثار أنيابه الصفر ..

سعيد .. يضمها اليه .. هي أيضاً امرأة توقف الحزن والحسرة والحنين ..
يفرق معها في دوامات حارة عجيبة .. يشم عطر الغابات المشحونة بالنعاس
والتأوه ، ويحس الزمن حفة من الرمل تنزلق برعونة من بين أصابعه ...

الرمل يتزلق بسرعة .. يتزلق بسرعة .. بسرعة ..
... يكاد الليل يتصف . تكتشف رفاة ذلك وهي تنظر الى ساعته
ذات العقارب التي تضيء في الظلام
- أرجوك ، دعني أذهب .. لقد تأخرت ..

صوتها لاهت ومنعش .. لا يقول لها شيئاً .. يتركها تنهض كحلم
هارب .. يتركها تلملم أشياءها في الظلمة ... تقترب منه بوجهها قبل أن
تمضي لتقبله .. يغمره اشمئزاز حاقد .. يمد يده ليضيء النور .
- لا .. لا .. أرجوك لا تشعل الضوء .

لا يجيب . بقسوة يضغط على المفتاح تحت الوسادة .. يتفجر الضياء
الفاجر أسهماً قاسية تسمرها أمامه .. يتأمل شعرها المشعث في النور ..
لم يعد مصففاً جميلاً ، ولا يبدو طبيعياً ، فعبث يديه بعد يدي الحلاق
جعل الشعر يبدو متفوشاً في بعض الجهات وهامداً سخيفاً في بعضها الآخر ..
والوجه وقد ساحت عليه الأصباغ فتلطخ الخدان بالكحل الاسود والأخضر
وضاعت حدود الشفاه التي كانت متقنة الرسم .. ويدت له نظراتها زائفة
كأنما أدركت بغريزتها الأنثوية وطأة حكمه عليها وتحامله ... كم يكره
الأشياء المنتهية ، الموائد التي شبع منها ، ما أقبحها .. يتمنى لو تخففي
بسرعة وتحمل تشويهاً ، هو الذي شوهاها ، كان يعرف ما سبى .
أضاء النور .. لا جدوى من أي شيء .. لا مفر ..

تهمس بصوت ذليل مرتاع : أما زلت عند عدك .. هل سنعلن
خطبتنا يوم السبت ؟

بكثير من السخرية السوداء يجيب : طبعاً .. طبعاً يا حبيبي ..
تعالى يوم السبت مساء ، وسوف نسهر معاً .. وسأزور أهلك وأخبرها ..
تمضي ..

يخرج الى الشرفة ويعب من نسيم الليل كأنما ليظهر صدره من أنفاسها ..

حتى خداعه لما لم يعد يجدي .. لا مفر .. لا جدوى من أي شيء ..
باستسلام منكسر مريع يعود الى فراشه .. باستسلام مفجع يدفن وجهه
تحت الوسادة ويبكي .. ويبكي كما لم يعو ذنب جائع ، كما لم تنح ريح
بن أذرع طاحونة محطمة .. ويبكي .. سوف يظل يبكي حتى ينام ..
سوف يستسلم للحلم .. للشبح .. للموت .. لقد تعب .. حتى أنيابه تعبت ،
سئمت ، يبكي ... ويبكي .. لم تعد الجدران تسمع نحيبه .. من جديد
يروح في الاغفاءة العميقة التي يعرف ... التي هي أشبه باليقظة منها
بالحلم .. من جديد يرى انه يسير في تلك الصحراء الواسعة التي لا نهاية
لرمالها وكآبتها .. من جديد يرى الساقين الحجريتين المائلتين . الكتابة
البلهاء الفخور على قاعدة التمثال .. من جديد يسمع الصوت الكتيب
الخشبي ، الصوت الرهيب كصرير أبواب مقابر أثرية صدئة لم تفتح منذ
عصور .. يقول الصوت : غداً أول الربيع .. غداً تموت .. غداً تموت !
من جديد يحس الصوت مقنعاً بلا دليل ، مؤكداً بلا برهان ، ويسقط
تحت وطأة كثافته ، ويصدق .. يصدق .

يستيقظ والدموع ما زالت تغطي وجهه .. لقد دنت النهاية .. فليستسلم
للزوبعة ، للدوامة الرهيبة التي تشده الى أسفل .. الى أسفل ..
... لما فتح عينيه مرة ثانية وجد ان الليل قد انقضى والشمس تغمر
الغرفة .. يحس بأسف عميق عميق لأنه غفا.. لقد انقضت ليلته الأخيرة ،
لن يرى بعد البارحة الليل الجميل يصبح المدينة بالصمت الأسود المرهف
وبعد الأشياء كلها للحب والحب .. لن يرى النجوم أبداً .. ليت القبر
شفاف .. ليت لا يموت ...

ما الفائدة ؟ ماذا سوى أن يكسره ما دام سيمضي ويخلف النجوم
والليل للآخرين ؟ ماذا سوى أن يحقد ؟ ماذا سوى أن يغرس أنيابه ليعلق
بشيء ولا يمضي ...

ينادي الخادمة . يريد حماماً كحمام البارحة .. سيستحم ببقية فلاسفته..
هذا هو الشيء الوحيد الذي يصلحون له .. ليته اكتشف ذلك من قبل !
... يخرج من الحمام بعد مدة وسجيزة . لن يضيق الوقت ، الوقت
ثمين . يفاجأ بامرأة تروح ونجيء في البهو بعصية . يذهب الى غرفته عن
طريق الممشى دون أن تشعر به ويرتدي ثيابه ثم يخرج اليها ..

— نائلة .. ماذا بك يا نائلة ؟

— لا شيء .. صباح الخير ..

— لا .. يبدو عليك الضيق .. هل قال لك أخي شيئاً ؟

هل رأنا البارحة ؟

— لا أعتقد .. لم يقل لي شيئاً من هذا ..

— اذن ، ما الذي يضايقك ؟ تكلمي ...

— سمعت زوجي يحدث الدكتور دريد .. اني قلقة .. هل أنت

مريض حقاً ؟

— لا .. أبداً .. أنا بخير .

تنفجر باكياً فجأة .. تقول وجسدها الضخم يهتز : لن أخفي عليك

شيئاً من عذابى .. أحقاً انك ستموت الليلة ؟

— من قال لك ذلك ؟

— أخوك يعرف ذلك منذ أسبوع .. خبرنا منذر بأنك كتبت وصيتك

وقلت له ذلك ..

— الوغد .. لم يكتم السر .

— لا .. لم يكن وغداً .. كان يرجو من أخيك أن يهتم بأمرك ..

— وهل خبرك بما في وصيتي ؟

تتلطم : لا ... لم يفعل .. لم يقل شيئاً ..

تقرب منه بحنان مفتعل : يا حبيبي المسكين .. سأموت غداً اذا

انتحرت ..

- ومن قال لك اني سأنتحر ؟
 - ماذا ؟ لن تنتحر ؟ اذن كيف تموت ؟
 - ستعرفن فيما بعد ..
 - لقد تأخرت . سأذهب ، سأحدثك دائماً بما يدور وراءك أيها الحبيب الطيب .. ثق انني وحدي المرأة الوفية لك .. أنا وحدي وفية لك .. تمضي . يستريح منها ، من الكابوس اللزج .. سوف يذهب ويتفقد قبره .. لا .. لن يفعل .. أمامه الأبد كله ليتفقد . سيعد العدة للوليمة . وسيللم أشياءه ويحضرها للورثة .. والليلة ، حينما يتجمعون حول المائدة ، لن يدروا . انهم يتناولون لحمه طعاماً ، يتقاسمون ، هو سيوزع عليهم نفسه بيده ... سيمنحهم لحمه وثورته وأشياءه .. وفجأة سيداهمه الموت .. ترى ما الموت ؟ أهو امرأة جميلة شعرها شلال من التفاح والدم ، تفتح الباب بهدوء نسمة فلا يراها سواه ، ويخرج معها الى الشارع متأبطاً ذراعها حتى إذا ما ضمتها الظلمة جرفته صامتاً منوماً الى المقبرة وغرست أنيابها الحادة في صدره ؟ ما الموت ؟ أهو لحن قاعم يتسلل الى صدره ويمتزج مع أنفاسه في إيقاع موحد عذب ، ثم يمضي ومعه أنفاسه التي عادت الى اللحن الأساسي الذي شردت عنه حيناً ؟ أم هو .. آه ... كفاه تفكيراً هكذا .. بعد ساعات يكتشف كل شيء ..
 حفنة الرمل تنزلق من بين أصابعه بسرعة .. بسرعة ... انه لا يريد للزمن أن يمضي .. يخاف .. يخاف الغروب الأخير الذي سيراه .. لا يعتقد ان لربى الموت شمساً أو فجراً أو زمناً ... هنالك الصمت ، أبد الصمت ، خلود الصمت ، إيقاع الصمت الرمادي ..
 الساعة السابعة .. والباب يقرع ! نسي أن سلمى ستجيء .. يفتح الباب لها .. داره لم تعد تستقبل إلا النساء ، تدخل ، يتأمل وجهها التنظيف الذي لم يشوّهه خط ملون هجين ... تضايقه هذه الفتاة المتأسكة التي لا يستطيع أن ينقدها .. يرى انها ترتجف ..

- هل تشعرون بالبرد؟
لا أدري ماذا حدث .. بعد هذه الأيام المشمسة يبدو ان الشتاء قد
صمم على العودة ..
يمضي الى النافذة فتندفق نسائم باردة جداً .. انه الشتاء يلفظ أنفاسه ..
يا للحسرة ..

- سلمى ، أريد أن أقول لك شيئاً ..
بلهفة تهتف بركنا العسل في وجهها : ماذا .. قل .. أرجوك ..
سيعذبها .. هذه المخادعة ، سيعذبها ..
- سأموت الليلة ..
ماذا ؟

- سأموت الليلة !
تنقبض ملامحها فجأة كطائر يعذب . تهاusk . تنهض بصمت وتوجه
نحو الباب لتخرج .
- سلمى ..

- هذا يكفي .. لو كنت تحبني حقاً لما تحدثت عن الموت بهذه
اللهجة ، ولأحييت الحياة من أجلي ..
.. تغمره حيرة ممزقة .. يحس انه بدأ يضيع .. نائلة بكت لما عرفت ..
رفاه ستجن وتبكي .. هذه البلهاء المخادعة ، لماذا لا تقول له شيئاً ؟
لماذا لا تمنح أنيابه فريسة من نفسها ؟

الباب يقرع . جاء ضيوف وليمة الموت .. يحس انه متعب، بصعوبة
ينهض . ينهض لاستقبالهم . قلبه ينبض بسرعة .. بسرعة كقلب الفراشات
التي لا تعيش أكثر من يوم واحد ..
ها هو أخوه يدخل جامد الملامح كحفار القبور ، ونائلة ، بعينيها

الحزبتين المتطلعيتين الى مشهد مفرج كأنها جاءت تشهد صلبه . يتبادلون عبارات المجاملة العادية . يحس انهما يراقبانه بفضول ، يتأملان مشيته وحركاته يتوقعان أن يسقط فجأة على السجادة ميتاً . انه واثق من انه سيموت الليلة ، بعد ساعات ، ولكنه لا يعرف كيف ؟ وقلبه ينبض بعنف عجيب ، يترقب المجهول المخيف ، المجهول الكريه ..

الباب يقرع من جديد .. يدخل دريد ومنذر وهشام . اكتملت حلقة ضيوف الميت . يثرثرون وهو يضيغ عنهم ، يحس بالليل إحساساً مكثفاً لم يعرفه من قبل ، الليل والريح التي تعوي كأنها الطبيعة تعاني محاضاً مؤلماً قبل أن تلد الربيع ، وبعد ساعات يولد الربيع ويموت هو ! انه متعب ، خائف ، قلق ، حاقد ، يحس بضربات قلبه تزداد سرعة كأنها دورات محرك طائرة فقد ربانها القدرة على السيطرة عليها ...

يلحظ انهم جميعاً يراقبونه ، نظراتهم الفضولية تطالبه بمشهد مفرج.. لقد تأهبوا لذلك ، كجلادين متعطشين للدماء ، يلاحقونه بأبصارهم عن صحته وقوته .. فليعرف انه لا يدري كيف سيموت ولكنه متعب متعب ..

— الطعام جاهز .. تفضلوا ..

ينهضون نحو غرفة الطعام الفاخرة. يلتفون حول المائدة يأكلون بشراهة. يحس بأسنانهم وكأنها تنغرس في لحمه هو ، يثرثرون ويضحكون : هل يمكن أن يكونوا لا مهالين الى هذا الحد ، أم انهم لم يعودوا يصدقونه ؟ الساعات تمضي والليل يكاد يتصف وخدر عجيب بدأ ينسل الى مفاصله وعضلاته .. ما زالوا يشربون ويضحكون ، وهو يحس بانفصال حاد تدريجي عنهم كأنه شجرة في قمة جبل عار . يدون لعينه كالأشباح ، لم يعد المجهول مخيفاً ، لم يعد كريهاً ، وداعة جقيقية غامضة تغمره والأنياب الجائعة في صدره بدأت تتساقط كأوراق الخريف وتترك قلباً عارياً للسان الليل والريح يلعبه ويحن عليه .. يحس بحاجة الى شيء ما ،

الى وجود جديد، وجوههم قراقص أمامه ، نائلة بعينيها الحزبتين وصوتها
البائس إذ قالت له « ثق انني وحدي المرأة الوفية لك »... وأخوه بوجهه
الجامد المترقب ، أخوه المسكين الذي خدعه طويلاً دون أن يدري ،
ورفاه ، وجه رفاه المسكينة مشعث الشعر ساعة أضاء النور فجأة إذ نهضت
من فراشه ، وتعمد أن يخرجها ويشوها ، ورفاه تموء «لقد تخلّيت عن
خطيبي الشاب الذي كان يعبدني من أجلك » ..

ودريد الحريص على صحته ، المرتاع من أجل ضربات قلبه العجيبة ..
ومنذر .. وهشام ... وأنوار ... و وتختلط الوجوه ، تتزاحم ،
تتلاحق ، يحس بندم عجيب يعتصر قوّاده ، يود لو يصرخ . لقد أسأت
اليهم جميعاً ، لماذا يا أنيابي ، يا أنياب الرجل الوحيد .. أريد أن
أموت الآن ، أريد ، تراني أستريح .. تسلل من النافذة سحابة قوس
قرحة الألوان .. يستنشقها ، يمتصها ، يسمعها ، ينفجر شيء في صدره
ويحس أنهم يحملونه الى غرفته ويسمع من بعيد ، يسمع من بعيد نجيب
زوجة أخيه .. الطيبون ، سوف يجدون بعض الغزاء حيناً يقرأون وصيتي ،
حيناً يخبرهم منذر بأنني تركت لهم جميعاً ثروتي .. آه . أختق .

الريح ، الريح تحملني معها الى بعيد ، أنا غيمة ، أنا نسمة ، أنا
ذرة رمل في الصحراء الشاسعة ، الصحراء الرمادية حيث لا شيء سوى
الريح الساخرة من الكلمات المحفورة في الصخر .. كلمات الانسان الفخور..
ومن بعيد يسمع زعيق نائلة : لقد مات .. مات ... إذاً فقد مات ا..
شيء كثيف كالصمت العميق العميق الذي يطوي في جموده معرفة الوجود
كله يغلفه .. إذاً فقد مت ! يسمع بكاء أخيه ، بكاء رفاه ، بكاء أنوار ،
بكاء منذر ودريد . بكاء .. بكاء .. كم سبب لهم من آلام ...
إذاً فقد مت ! تلفحه الريح ساخرة العويل .. إذاً هكسدا يكون
الموت .. رحلة الى صحراء الحقيقة ، الحقيقة الأولى هي الرمل والريح ...
ينفجر محرك الطائرة المسعور في صدره ويصمت كل شيء ..

يتقضي بعض الوقت ...

يفتح عينيه . يرى انه في غرفته .. الأشياء ما زالت شاحبة والوجوه المنكبة على سريره ليست واضحة بعد .. هنالك حديد بارد ملصق على صدره .. سماعة طبيب ... الوجه القريب منه هو وجه دريد . يستطيع أن يميزه . آه هذه نائلة بعينها المحمرتين . هذا أخوه ، منلر ..

انهم جميعاً حوله . ولكنه مات ، هنالك ذلك الصمت العميق الكثيف في أغواره يقول له انه مات .. ولكن هل يعني الميت وجود الآخرين ؟ الريح قد صمتت ، والفجر بدأ يطل من نافذة غرفته .. يسمع دريد يهتف : الحمد لله ، لقد انقضت النوبة وعاد قلبه يخفق بشكل طبيعي . بسام يسمعه ، ولكن صوته يبدو غريباً بعيداً ، أشبه بزخارف ملونة سخيفة التمويه على جدار وحشي غريب مريع يراه بينما هو يسمع دريد يتكلم ! هنالك شريط من الكلمات المضيفة يتحرك بسرعة على جبين دريد ، والكلمات المضيفة الصامتة التي تتحرك بسرعة كالأفاعي تقول : أيها الثور ، لم أشهد في حياتي كلها مريضاً مثلك .. لماذا لم تمت وترحني ؟ لو انك تدري كم أنا بحاجة الى نقودك ..

بسام يظل صامتاً جامداً يتساءل برعب .. تراني مت أم لا ؟ أهذا هو الموت أم اني نجوت حقاً ؟ الحمد لله على سلامتك يا حبيبي ، يا أخي ..

وبحس بسام بأنه لم يعد يبالي بما يسمع .. لقد انجبت عيناه بحركة عفوية إلى جبين أخيه حيث رأى أيضاً شريطاً من الكلمات المضيفة يتحرك بسرعة ، والكلمات المضيفة الصامتة تقول :

لعنة الله عليك ، لماذا لم تمت ، لقد تحمّلتك طويلاً ... لقد سكّت على علاقتك بزواجي يا كلب بانتظار اللحظة التي نحصل فيها على هذه الدار الرائعة ...

يحس بسام انه يتطلع ريقه بصعوبة .. ويدرك انه أضحي قادراً على
قراءة ما يجول في ذهن الآخرين .. انه لم يمت ولكنه اكتسب هذه الملكة
العجيبة ...

نائلة تثن : سلامته .. سلامته ...

وينظر الى جبينها مستعظفاً لكنه يقرأ شلالاً من الكلمات المضبوطة المذهلة :
لماذا يا رب ابتليتني به وبأخيه .. لماذا لا يموتان وأسريح من سماجتها ؟
منذ الصباح وأنا خائفة من أن لا يموت ..

يد وحشية القسوة تعصر قلبه وتملأه بحزن حقيقي عميق ...

إذن فقد كان أخوه يعرف وكان بصمت ويتجاهل من أجل ماله ؟
إذن كانت نائلة تخدعه ، تمنى موته ، وموت زوجها أيضاً ؟! إذن كان
دريد يتنذر بمرضه ويبتظر ساعة الخلاص منه ... وهو ، العملاق البائس ،
كان يظن انه يخدعهم ، كان يتعذب لأنه يحقد عليهم ، كان يظن انه
يلوث أشياءهم ، يلعب بمقدراتهم ، واذا بخداعهم أعظم من خداعه ،
واذا بالأعْيى طفلة بريئة أمام غشهم ودنسهم .. واذا بأنابسه التي كان
يظنها حادة قاطعة ، ناعمة ساذجة أمام شرهم .. كان يظن انه قد نجا ،
لكنه الآن يؤمن بأنه قد مات ، مات حقاً ما دام أضحي قادراً على أن
يعرف ما يدور بخلد الآخرين ، مات الميتة الأبدية التي لا راحة منها ،
كل منهم طعنة خنجر ، انها ميتة بروميثيوس الذي سرق النار المقدسة ،
نار المعرفة فعاقبته الآلهة بأن صلبته عارياً على جبل وجعلت النور تاكل
أبداً من كبده الذي يتجدد كلما تمزق في أبدية عذاب عجيبة ..

وهو قد مات .. مات حقاً ما دام في كل كلمة كأس من السم ..

لقد صدق الصوت الغامض .. لقد مات ..

« الموت الحقيقي هو أن أعرف الآخرين .. يا رعيي بما تبقى » ...

يدمد منظر ببلاهة : « يبدو انه قد تحسن ، من الغريب انه عرف

سلفاً انه سيصاب بمثل هذه النوبة .. « لكن بسام لا يبالي بسام كلماته ،
انه يقرأ شريط الكلمات المضيئة المتراكضة على جبينه : سنباب جميعاً
بنوبة مماثلة لأننا صرفنا ما في الجيب منتظرين ما في الوصية .. ليتني لم
أخبرهم بما فيها لأنني لن أنجو من لومهم الى الأبد ..
لم يعد يستطيع أن يتحمل ... هذه الحفارات التي تجول في رؤوسهم ،
وهذا الازدواج الفظيع ، هذا الانفصال الكامل بين ما يقولون وما يصنعون ،
أهذا ما علمتهم المدينة إياه ؟

يسمع انه يصرخ : أخرجوا جميعاً .. أخرجوا من وجهي . يا لحفارتكم ..
يخرجون ويظل وحيداً . ينادي الخادمة . تدخل مرتعدة .
— أريد كأساً من الماء ..
— أمرك سيدي ..

يقرأ على جبينها العجوز « مسكين سيدي بسام ، لو كانت له امرأة
وولد لما تعذب هكذا وجن » ..
يشرب كأس الماء ويسقط في نوم طويل متعب ..
يستيقظ والشمس تكتس الغرفة بشعرها الأشقر . ينهض ليذهب الى ..
الى حيث لا يدري ... سوف يكتشف العالم من جديد ... لا أحد يدري
أية قوة سحرية عجيبة يحمل .. لا أحد يدري أي سر رهيب يطوي بين
جوانحه ، أي عذاب أبلي يلازمه وسيلازمه ما دام يدري ويعرف كل
شيء .

يركب سيارته وينطلق بها . يقف في إحدى محطات البنزين ليملا
خزانها . حيناً بعيد له العامل ما تبقى من المال يقرأ على جبينه انه خدعه
وان البنزين مغشوش . ليت لا يعرف ... « أية ميتة هذه التي أحياها » ..
الى أين سوف يذهب ؟ الى الجامعة ، الى حيث زملاؤه المتعلمون الراقون ..
لا ريب في أن أفكاوهم تنطبق على أقوالهم ... يدخل الى جانب أحد
زملائه ، يحدثه متلفظاً : صباح الخير أستاذ عباس ..

- صباح النور يا فيلسوفنا الكبير ... كيف صحتك ؟
على جبينه تتلوى الكلمات الحقيقية المضيئة ، صباح الزفت يا أكبر
سخيف ومغرور .. ومع ذلك يدفعون لك ساعات إضافية أكثر من
جميعاً ..

يحس بأنه عاجز عن متابعة أي حوار معه .. يصرخ فيه فجأة :
أيها الفقير المتلون ، أهكذا تجيب ؟

ويلتفت بقية الاسئلة اليها بدهشة .. لقد سمعوا جميعاً جواب الاستاذ
عباس ولم يكن فيه ما يقضب بل على العكس كان مفعماً باللطف ..
انهم لا يدرون ان هذا اللطف المقتل بالذات هو ما أثار الاستاذ بسام ..
يتهامسون : لا يسمعون لكنه يقرأ على جبينهم :

ألم تقل لكم منذ أيام أن المسكين قد جن ؟
سوف يعتبرونه جميعاً مجنوناً ما دام صادقاً ومخلصاً .. كان عليه أن
يشكر الاستاذ عباس وان يريق على خداعه خداعاً ليكون فيلسوفاً وذكياً ..
فليحاول ، ان عليه أن يتظاهر بالجهل كي يقوى على التعايش معهم ...
يقول بانكسار مفاجئ : آسف يا أستاذ عباس ، لم أكن لأوجه الكلام
لك ، هنالك مشكلة فلسفية كنت أتمن مناقشتها في ذهني ..
يجيب الاستاذ عباس في مداينة عجيبة : لا بأس ، لا بأس ، نحن
اخوان على أية حال ..

ويحاول بسام أن يدير وجهه عنه كي لا يرى الحقيقة لكنه لا يستطيع ،
هنالك قوة همجية تشد عينيه وحواسه الى الجبين ، الى حيث الكلمات
المضيئة : الحقيقة ... ويرى هناك الوجه الحقيقي لزميله ، يرى الكلمات
العفوية قبل أن تغيرها غابة المدينة ، يرى أن عباس يقول في نفسه :
لو لم تكن رئيس القسم لصفعتك على خدك المحمر كالثور .. ولكن ،
علينا أن نتحمل جنونك أطول فترة ممكنة ..

ورغم انه وطد العزم على أن لا يجيب ، يجد نفسه يصرخ في وجهه
بحدة : أنت المجنون ، أنتم المجانين جميعاً ما دمتم ترتدون وجوهكم على
وجهها العاكس ! هل تريدون أن تروا كيف تبدو لعيني ؟ انظروا !

ينهض الاستاذ بسام ويخلع معطفه ثم يرتديه ووجهه الى الداخل ويطأته
الى الخارج ! ويدهل الاساتذة ثم يتفجرون ضاحكين ويقرأ على جبينهم:
مجنون .. يجب طرده ... لكنه لا يبالى ، يصرخ: انكم ترتدون وجوهكم
وشخصياتكم كما أردتني الآن معطفي ! ليتكم تفهمون كم أنتم مضحكون
بالنسبة لي ! السم في أعماقكم ، وكلمات المداهنة تلتطخ شفاهكم كالأصباغ
على وجه مومس ...

يخرج من غرفة الأساتذة وهو يحمل معه حقبيته التي اعتاد أن يحملها
دون أن يفتحها منذ أسابيع .. يتبعه الآذن ويحاول أن يحملها عنه وهو
يقول : اتركها عنك يا سيدي سوف أحملها أنا حتى السيارة .. ويكاد
يعطيه اباهاً ويشكره حيناً يقرأ على جبينه وجهه الحقيقي ، يقرأ : « لم
تدفع لي أجرة الشاي والقهوة منذ ثلاثة أشهر ، أخشى ان تكون قد
جنت حقاً وأبقى أنا بلا نقود » .. وبسرعة ، بآلم حقيقي، يدفع له ثمن
تملقه ويتركه يحمل الحقبيته له ... ولكن ، بينما السيارة تبعد عن الجامعة ،
يرمي بالحقيبة من النافله بقرف !

الى أين ؟ الى أين يذهب ؟ أين يستطيع أن يجد مخلوقاً واحداً يقول
ما يفكر به ؟ أين يجد مخلوقاً لم يسقط في غابة الألقنة ويظل فخوراً
بأشياءه مباهياً بأحاسيسه الحقيقية مها كانت مستهجنة ! أين ؟

يوقف سيارته في أحد الشوارع ويسير وكأنه يرى المدينة للمرة الأولى ،
كأنه يرى البشر للمرة الأولى .. حيوانات عجيبة تسعى ، كل فرد فيها
مزدوج .. المخازن الكبيرة قد فتحت أبوابها والأرصفت مزدحمة .. الى
جانبه رجل تتأبط ذراعه امرأة شابة يبدو أنها زوجته . عيناه تتأملان

عابرة وعلى جبينه تضيء كلمات الأعماق : ليتني لم أكن متروجا ... على
الناصية يقف رجلان يتصافحان في مودة ... انه لا يسمع ما يقولان لكنه
يقرأ على جبين أحدهما : كلما غيرت طريقي التقيت بك ... لو كنت
تدري انني زورت الأوراق باسمك .. يلحق به متسول مشوه الساق في
مشيته عرج . ترعق السيارات ، المتسول يلاحقه .. ينفحه بعض النقود
والمتسول يقول : الله بطل في عمرك .. وعلى جبينه يقرأ : حينما أناقني
أمشي خيرا منك ..

لا يدري كم من الساعات انقضت وهو ما زال يتسكع ... يكتشف الوجه
الحقيقي للناس بعد ما غسلت لعنته وجوههم وجعلته براهم على حقيقتهم..
ويشعر بالخوف ... بخوف حقيقي وحشي ينبع في أعماقه .. انه طفل ،
طفل من كوكب آخر فقد القدرة نهائياً على التعايش مع مدينة غريبة
تضحك شفاه أهلها بينما أعماقهم تدمى ، وتقتل ملامحهم بالدموع ، بينما
تفور مستنقعات المداينة فيها ...

هؤلاء العابرون ، لم ير انساناً واحداً يقول ما هو في أعماقه ... لم
ير انساناً واحداً يرتسم على جبينه ما تنطق به شفاهه ... الى أين يذهب
وهو الانسان الوحيد الميت الذي يسمى ؟ لقد صدق الصوت العجيب !
وهو اليوم قد اكتشف الموت، معنى الموت هو أن نعرف الآخرين ونظل
نحيا معهم ! الموت هو وجوه من حولنا حينما تسقط الأقنعة عنها ..
فليذهب، فليذهب الى المقبرة، الى حيث لا تناقض بين الأقوال والأفكار...
وليحدث الى الرجل الذي يبيع القبور ، لا ريب في انه شيء آخر ...
حينما يصل الى المقبرة يحس بطمأنينة عجيبة تغمره ، أولئك الأحياء
حقاً ، الذين يمارسون في قبورهم حياتهم الحقيقية، ويتخلون عن عشرات
الشخصيات التي كان عليهم أن يتبنوها في تعايشهم مع الآخرين، أما هنا،
فكل منهم يمارس فرديته بالطريقة التي تروق له .. وفي الليل، تغبظ السماء
لأغانيهم المتناثرة التي تنضم في لحن واحد ميزته الوحيدة انه صادق ..

هنا يظل الملحد يشتم الى الأبد ، دون أن يضطر لنشر الكتب عن الإيمان .
وهنا يظل المحب ينشد أغانيه الى الأبد ، دون أن يخشى الحياة أو الغدر
أو الإهانة ... فليكن حفار القبور صديقه .. يقرب منه ويقول له :
« صباح الخير » .. هذه المرة يحس أن مكان « صباح الخير » الحقيقي
هو في هذا المكان .

- أهلاً .. صباح الخير .

ويقرأ على جبينه : ألم تمت بعد ؟ ظننت أن الورثة سيدفعون ما تبقى !
يتأسك ويحاول أن يتم حديثه ...

- هل أنهيت بناء القبر ؟

هذه المرة يتحدث عن القبر بلهفة ، لم يعد شيئاً مرعباً وهو الذي
صار يرى في كل جبين هوة تنشق وقبراً ينتظر ، وهو الذي صار يحس
كل كلمة من كلمات الآخرين صخرة وصخوراً تتدفق عليه لتمطره .

- نعم ، لقد انتهى القبر ..

ويقرأ على جبينه كلمات الأعماق ، وأنت أكبر غيبي في رعبتي ويبدو
أنك لم تدفن أحداً من قبل لأنك لا تعرف الثمن الحقيقي للقبور ...
يستحسن ألا يتبادل الحديث مع أي إنسان وإلا فإنه سيتركب جريمة
ما ذات يوم ...

المقبرة مكان قلدر ما دام فيها إنسان حي واحد يداهن ويخاتل ليحيا ..
صارت الحياة شيئاً قلداً في هذه المدينة ...

يتخبط في طريقه الى سيارته وإلى داره ...

الغروب ، وهو على الشرفة، وينابيع الدم التي يفجرها الغروب تلتطخ
الشوارع والمباني والأفق ...
« وصلت ضيفتك »

هكذا تقول الخادمة التي دخلت دون أن يشعر بوقع خطاها .. يقرأ

على جبينها : لبتك تخرج الليلة وتسهر ، فابني مريض وأريد أن أتسلل لأراه .

يقول لها : دعيها تدخل ، واذهي وزوري ابنك ! تشق مرتاعة وتخرج ...

بعد لحظات تقف رفاه أمامه جميلة كما هي أبداً .. نسي أنها ستجيء لتستوفيه وعده ! وعده لها بالزواج ، بحسها بعيدة نائية كالشيخ أمامه ، ينظر إليها دون أن يقول شيئاً ، ويقرأ في صحتها أنها تقول : ما زلت أتمنى خطيبي ولكنني أحب بيتك الفاخر .. ولا أريد أن تعمى عيني كما حدث لأمي الخياطة ...

تظل صامتة ، ويظل صامتا منكمشا قاسي التعابير الى حد يزعجها ... تحس أنه تغير ، لم يعد ينظر الى عينيها الى شعرها وجسدها ، انه ينظر الى البعيد البعيد وتعابير وجهه تقول انه يفهم كل شيء ... لا تبدو عليها الدهشة حينما ينطق بكلمات مقتضبة تتبعه : مع السلامة ... لا تحاول أن تناقش . أن تسأل . يبدو أن جوه المكهرب يحطم أعصابها . تخرج وكأنها هاربة من مشهد جثة !

يتنهد بارتياح بائس ! بارتياح جثة أعفيت من التشويه ومن التمثيل فيها ! لقد انتهت ! اني منخور من الداخل ... أنتصب كعمود مجوف في الصحراء بدأت الثقوب تنفتح فيه كالقروخ وبدأت ريح الليالي المربعة تسدل اليه وتهم بين الثقوب وتصفر وتصفر ألحان الموت المربعة.. الموت الحقيقي الأصفر ... الموت الوحشي على رماح الكلمات المداهنة ، الموت الأعزل في المدينة العجوز كساحرة شريرة ...

سلمى ... وأنيابي ما زالت منفرسة فيك ... كلهم كانت أنيابهم أطول من أنيابي ... كلهم عرفتهم على حقيقتهم .. أما أنت ، أينما اللغز العسلي ، أينما المتحدية الهوجاء ، ما أنت ؟ السبت ! نسيت ان اليوم اليوم وفاتي ... ستجيبين سأطلب



منك ذلك .. وسوف أعاقبك بأن أتزوج منك ... لقد كنت أمهرهم في الخلداع ..

ولكن ، ما معنى ان أختصك وحدك بحقدى رغم اني قد فرغت من الآخرين وتجاوزت هياكلهم المهرثة ؟ هل كنت شيئاً حقيقياً في وجودي حتى اني أحس انك ما زلت حولي رغم اني مضيت الى براري الحقيقة، براري الموت ! يهتف اليها وبصوته الحازم يطلب منها أن تأتي .

الباب يقرع بعد نصف ساعة .. هذه المرة يسمعه .. يركض نحوه بجرأة كاهن قرر أن يكشف الستار عن آلمته ليتحقق منها، من حقيقتها ... تدخل سلمى ... أبدأ لم تخلف موعدها رغم كل ما فعله ! وترتمي نظراته على وجهها، تنطرح انطراحاً على الملامح النظيفة والتعبير المتأسك ..

- أهلاً سلمى ..

- أهلاً بك ، شكراً ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : أهلاً بك ، شكراً ...

- سلمى أريد أن أتحدث معك للمرة الأولى ، بصراحة ..

- اني دائماً أتحدث بصراحة ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : اني دائماً أتحدث بصراحة !

- سلمى ، هل تحبيني حقاً ؟

- أجل ! أحبك لكنني غاضبة منك، وسوف أبتعد عنك نهائياً لأنساك ،

من أجل كرامتي ..

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : أجل ! أحبك لكنني غاضبة

منك ، وسوف أبتعد عنك نهائياً لأنساك .. من أجل كرامتي ...

- سلمى ... قللي ، الى أي حد تحبيني ؟

- بلا حدود ، بلا زمن ، كالبحر والأزل ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : بلا حدود ، بلا زمن ،
كالبحر والأزل ...

- هل تستطيعين الحياة معي وحدي ... في غابة ، في كهف ، في
أرضي الضائعة بين الصنوبر ؟
- أجل ! أنت عمري وعالمي ، ومع آدم مثلك أرضى بأن أكون
حواء الأولى ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : هي كلماتها نفسها ... سلمى
الرائعة التي كان يخافها لأنها لا تملك ولا تداهن ولا تحدته باللغة التي كان
قد اعتاد على فهمها .

- سلمى ، سرحل الليلة ! ما رأيك ؟

- الآن ... اذا استطعت أن أغفر لك ...

هذه المرة لم ينظر الى جبينها لم يعد بحاجة الى أن يمارس موته معها
لأنه واثق منها ... معها وحدها يستطيع أن يحيا ... بعيداً ... حيث الريح
والمطر والثلوج ... وهمسات المدى السحيق التي لم يستطع الإنسان أن يعلمها
الكذب بعد .
وسلمى ...

غجوية بلا مرفأ

(*) هذه القصة تُرجمت إلى الألمانية والإنكليزية والإيطالية.

وجهك ، يا حكاية تشرّد جديدة تفوح منها رائحة المطر في شواطئ
عذبة الحزن والدفء .

وجهك ، يا قلبي الخصرة في عينيك ، يا شهوات روما في الملامح
الصارمة .. حتام تلاحقني لعنة معبودة ؟ حتام ترتسم في عتمة غرفتي وأنا
اطفيء النور لأنام .. فأسمع الضحكة العجيبة التي تفوح منها رائحة لفاقاتك..
وأتوق الى أن انحلل ، أفنى في الرائحة ضبابية منسية ..

الليل قد انتصف . الفيلم الهزلي في التلفزيون قد انتهى ، وقهقهات
جدي الريثة الجذلي واخوتي الأطفال قد هدأت ..

تأملته طويلاً وهو يضحك بينهم بوجهه ذي التعابير الساذجة كوجوههم
رغم أفاعي الزمن التي خلفت فيه آثار زحفها البطيء المرير . أحسست
انني احبه حقاً ، أتمنى لو أرسم على شفثيه ابتسامة فرح دفنت منذ أعوام
مع جثة ابنته الوحيدة : أمي ..

وكان هو أيضاً يتأمل جلسّي الى جانب خطيبي كمال والرضى يقطر
من عينيه ، ويختلس النظرات الى يدي الميتة بين يديه ليتأكد من انها ما
زالت هناك ، وأنا أترك يدي في يد كمال من أجل الابتسامة التي قررت
أن أرسمها في الوجه الجليل .. بأن ثمن ..

جدي المتعب المهودود لم يشك يوماً، ولم يتعلم يوماً مني ومن اخوتي

منذ غادرنا أبي الى بلاد بعيدة مع امرأة قيل انها فاتنة وخلف أمي المريضة
لتموت سريعاً ..

ورغم ضيقه من ولعي بالغناء لم يحاول أن يقف في طريقي يوماً ..
ولكنه عجز عن إخفاء فرحته يوم جاءنا كمال المهندس الثري يحمل الي
قلبه وثروته ..

تراني أقوى على الاستمرار ؟ أرتدي له قناع الفتاة البرية .. تراني
أقوى على الاستمرار من أجل ابتسامة جدي ؟

ووجهك يا حكاية تشرّد محبة يشدني اليه ، يشد العجربة النائمة في
أعماقي .. وضحكك التي أسمع فيها رنين مرساة ذهبية سعيدة لأنها وجدت
مرفاها ..

صدرك يا مرفأي كيف أهرب ؟ والليل يسود ، وجلدي واخوتي قد
انسحبوا الى غرفهم ، وخطبي قد جلا ، وأقنعتي قد اهترأت وأنا في
فراشي أعاني عذاب كل ليلة ..

أدس بوجهي تحت الوسادة أبحث عن النوم لعله يغنيء تحت الوسادة
فلا أجد سوى وجهك قريباً نائياً ..

وأفتح عيني أتأمل الستائر لعل النوم يغنيء تحت الستائر .. وأبحث
وراءها .. وراء اللوحة .. وراء منضدة الزينة .. أزيح بأهدابي شعاع
النور الخافت الذي ينسل من النافذة الصغيرة ليلقي على الأشياء ، وعلى
وجهك فوق الأشياء كلها ظلاً من العتب المرير ..

ويبدأ زحف الوجوه في غرفتي . ويبدأ حشد الصور التي يفجرها الأرق
في رأسي .. وعشرات الحكايا .. وعشرات المشاهد .. ووجهك رغم كل
شيء .. أحسك تستيقظ في عروقي كما تستيقظ كل ليلة ، تتحد بي ،
تنطبع ابتساماتك على شفتي وأنف من في دخان لفافاتك ..

الوجوه .. الوجوه الناقصة الغاضبة ، المستعطفة .. والوجوه التي تصرخ

والتي لم تتعلم كيف تصرخ بعد ... يا لهذيان الأرق ، يا لمدينته المربعة
التي تستيقظ في رأسي .. يا لعمرى المتعب الممزق نتفاً من ذكريات ..
ودوامات ..

ولا أملك إلا أن أتذكر .. وأتذكر ...

كان البحر مثقلاً بأشعة الشمس ، كان يرغمي كسولاً عاري التوهج
والملل .. وكنت أنيساً وحنوناً حتى نسيت انه لقائي الأول بك .. أنت
الملحن الكبير الذي يبكي المدينة ويضحكها .. وأنا الفتاة الصغيرة التي تتوق
لأن تمنحها لحناً لك تغنيه .. وقلت لك :

— أحب البحر هكذا .. حقيقياً عاري التعب والملل .. بلا قناع من
غلالة قمر .. ينوء بثقل الشمس على صدره رغم حبه لها ..
— انه يحبها في الليل حينما تكون بعيدة .. هل رأيت البحر في الليل؟
إنه وجه لإنسان يحب .. مليء بالظلال والمخاوف والزفريات .

— وحينما تكون قريبة ؟

— يحبها لأنه يعرف انها ستبتعد بعد حين .. الشرط الأول للحب
الحقيقي هو التحرق الى اللقاء .. هو السعي لتحقيق الطمأنينة .. انه
الدرب الى الغاية لا الغاية نفسها .. يبلغ أوجه في اللحظة التي تسبق ثانية
اللقاء وينطفئ .. بعدها بثوان ..

— انها للأساة .. ان نقضي عمرنا ركضاً وراء كأس لأننا نموت إذا
لم نشرب منها .. وإذا وصلنا اليها ، وشربنا منها متناً أيضاً .. في الحالة
الأولى يقتلنا الحب والوجد .. وفي الحالة الثانية يقتلنا اللاحب ! يقتلنا
أن نفهم أنفسنا ..

— ولكنك صغيرة .. هل تؤمنين حقاً بما تقولين ؟

— أجل ! للأسف .

— غنني .. قولني أي شيء ..

وأغني .. وأغني حكاية الأعماق البكر التي لا يطلها انسان .. أغني
حكاية العزلة التي لا مفر منها لمخلوق ..

كل منا في قفصه الزجاجي العازل .. نتخاطب دون أن نسمع أحدا
الآخر .. نقضي العمر تائهين في الغابات .. في الشواطئ .. بين الجزر ..
بلا مرفأ بلا مأوى .. حتى إذا ما أطل مرفأ من بعيد .. أدركنا أنه
ليس لنا ..

— صوتك مغمم بلوعة غامضة ، ومرارة تحرك وترأ دفيناً في أعماق
الناس جميعاً .. سوف تنجحين .. اني أفهمك جيداً .

سعداء .. سعداء بحكاية التشرّد كنا . لماذا تهاجمني الوجوه هكذا ؟
أبها الأرق الممزق ، لملم عن أهدابي نفث السعادة التي عرفناها ..
ابتها الوجوه التي تتبع من خوري وجيني وضعفي .. يا وجوه الذين أحبهم
والذين أكرههم .. أعرف ماذا تمثلين .. أعرف انك من بعضي ... كما
أن وجهه من بعضي ..

وأنا أنمق كحيوان خرافي له رأسان كل رأس يتجه الى ناحية معاكسة
للآخر .. أبها الأرق دع المدينة في رأسي تهدأ .. دعني أنس .

... مرة ، وكان الليل اسطورة خضراء تدفق من عينيك لتملأ البحر
أماننا .. مددت لي يدك ، وألف حكاية ضياع على كفك .. ولم أتردد ..
عانت يدي حكايا الضياع في كفك وللمرة الأولى عرفت نشوة السحب
التي تئن رعداً حينما تصحقها رعشة اللقاء ..

وانبثق البرق في عيوننا وأحسست النار تنتقل من يدي الى حلقتي ..
أخذت أتنفس بصعوبة لم أعد بحاجة الى التنفس لأحيا ما دمنا هكذا ..
وتظاهرت بأنني أريد أن انتشل يدي من يدك كي تزيد في حصارك لها ،
كي تشدد قبضتك عليها حتى تفتت أصابعها وتحيلها أصبعاً واحدة جديدة
تنضم الى أصابع يدك أبداً ..

واستمر العراك الرائع دقائق وجيزة .. وكسمة عشقت شيكتها
استرخت يدي في يدك .. وهنا حنوت عليها ، وأمسكت بها من أصابعها
برفق وقربتها من الشمعة الحمراء التي توسطت منضدتنا .. وكان نورها
التحيل يتسلق جانب وجهك ، فأحسسته دفر حنان غنياً بالكلمات الدافئة ،
غنياً بحنان المرافىء الغارقة في سحر أمسيات شرقية مثيرة ، وأنا غجرية
تبحث عن مرفأ حنان ..

ثم أخذت تقرأ كفي أو هكذا ادعيت .. كنت تمسك بكفي وتقرأ
في عيني وتغوص في مجاهلها لتروي بؤس دروب ما لها آخر ، ولتشم
رائحة أمطار حزينة تلاحق الغجرية النائية ، ولتسمع صرير أبواب صدئة
لم تفتح منذ زمن بعيد ، ونمت على الأحجار حولها نباتات الشوك والعليق
لتملأ المكان بالتوحش والنفور .

وقلت لي : هناك غجرية ملول ..

— تحب مللها ..

— لا دار لها ..

— ولا تحب أن يكون لها دار لأنها تكره الأقنعة .. المدينة قناع
ترتديه الغابة .. وهي ما زالت ابنة الغاب ..

— هنالك رجلان يتنازعاها .. أحدهما يحب أن يمنحها داراً .

— وقناعها يحب الدار .. وهي ترتدي قناعها كي ترسم ابتسامة على
وجه الذين تحبهم وتحس أنها مدينة لهم ..

— والرجل الآخر لا يملك لها سوى حكاية تشرد جديدة ..

— وهي راضية بها لأن الدار عرّض ، أما الغربة والحزن فحقيقة
الوجود الانساني ..

وهي تبدو طفلة تبحث عن الشهرة بغنائها العذب .. لكنها كما لا
يعرفها أحد ، تعيش أحزاناً نائية سحيقة الأبعاد .. تعيش ذاتها المفعمة
باللامبالاة والتشرد والتوق الى حنان تعرف أنها لن تجده ...

-- وهي لذلك أحبت الرجل الذي يمثلها والذي يجعل لها في وجهه
 حكاية لامبالاة وتشرد وحنان .. ان حبها له تقديس لذاتها .
 -- بل تكريس لرجسية الفنانة فيها ..
 -- وماذا ترى أيضاً في عيني .. اقصد .. كفي ..
 -- أرى غجرية تحب بحبها عن المرفأ أكثر مما تحب المرفأ نفسه ..
 سوف تكرهه إذا وجدته وإذا قيدت صخوره مرساتها .
 -- ارثي لهذه الغجرية التي تخرج مرساتها ومأساتها تائهة في البحار ..
 -- بل انك تحسدينها .. أنها في نظرك تمثل حقيقة الحياة .. انها تمثال
 عار لحقيقة الوجود البشري .. ستكونين بائسة يوم تتخلين عنها ..
 -- وماذا ترى أيضاً في عيني .. اقصد .. في كفي ..
 ولعلك رأيت حقاً .. ولذلك صمت .
 آه لماذا لا أملك إلا ان أجتر كل شيء ؟ هذا الأرق الرهيب ينكأ
 الجروح ... يمر بعصاه السحرية على قبور الماضي فتهب الحكايا من أكفانها
 حية جديدة والتزف ما زال حاراً في جراحها .. يا لحية عمري .. كيف
 أنسى !
 .. وكان وجهك يتألق ببحوية تشع أملاً لما قلت لي : دعينا نرحل
 معاً ... الى أي مكان .
 كم كانت الفكرة رائعة .. لن تمزقني غبرتي بعد اليوم وأنا أعرف ان
 زوجتك التي تغفو الى جانبك طوال الليل تسرق من صدري أنفاسك ..
 تحتصها من وسادتكما المشتركة .. سوف تبقى معاً .. نتشرد معاً .. وأنفاسك
 لن تكون لغيري .. وصدرك مرفأي وحدي ..
 ولكني رأيتم مساء تسرون .. أنت وزوجتك وأطفالك .. وكنت
 أرقبكم من بعيد . أسير وراءكم كالذبابة التي صممت على أن تختطف راعي
 القطيع ..
 وبسطة تمنيت أن أمزق زوجتك .. أن أفترسها .. ولم أخف نفسي

عن نفسي وراء قناع حنان مفتعل او رافة مصطنعة . اني أمقتها ..
ولكن إحدى بناتك تعثرت .. وسقطت على الأرض بحنان .. وبكيت
أنا .. بكيت في الشارع .. بكيت لأنني طالما سقطت ولم يرفعني أحد ولم
يرفعني أبي لأنه كان قد هرب مع امرأة ضائعة مثلي ..
وليلتها جاء كمال يمنحني عمره .. ولم يكن علي أن أسرقه كي يكون
لي .. وليلتها رضيت . لا من أجل زوجتك .. ولكن من أجل الطفلة
التي كنتها ذات يوم .. رضيت كي لا تكبر طفلتك مثلي وتصبح عجيرة
مشردة بلا مرفأ ..

ولكني أرفض أن أصدق .. كيف أتركك وأمضي بعيداً ؟
وحكاياتنا الحلوة الصغيرة ؟ والناس الذين كنت أغني لهم بصوتك في
حلقتي ، بأنغامك في صدري ، والجرأة التي كنت تمدني بها فأواجههم بها ،
والنجاح العذب ، النجاح الكبير حيناً أثير في صدور الغرباء مشاعر كالتي
تميش في صدري . أصنع لنفسي اسرة كبيرة مبهولة تشاركني ضياعي وغريبي ..
وأنت .. وأشياؤنا الصغيرة ... وضحكاتنا ..

مرة .. وكنت الى جانبك في سيارتك المشحونة بالفوضى .. وكنت
أرقب الشوارع والمارة والمخازن الملونة ... وفجأة هتفت : ما أجمل ذلك !
وسألتني : ماذا ؟ هل هو شاب أعجبك ؟
- لو كان شاباً أعجبني لاكتفيت بغصة ثموت في حلقتي ..
- هل هي فتاة جميلة ؟

- لو كانت فتاة جميلة لنظرت اليها بصمت ، ثم لاخترت النظر
الى وجهك لأرى اذا كنت تنظر اليها أم لا !

وكانت دوامة من الضحك الرائع .. أنت لي .. ستنظر الى الوجوه
كلها ولن ترى إلا وجهي .. وستضم اليك عشرات الأجساد ولن تحس
إلا بصلاية يدي في يدك .. أنت لي .. بل كنت لي .. لماذا أعذب نفسي ..
وماذا بعد يا ليلة الأرق الممزقة .. وهذا السرير الذي صار ثقبلاً

كأنني أنا التي أحله لا هو الذي يحملني .. فلأخرج من غرفة نومي ..
أنهض .. أتمسك في غرف الدار المظلمة شبح قبيل لم يثار له .
وشريط عمري المنعب ينزلق ، يلاحقني ...

... وكنت في المقهى مع بعض الأصدقاء لما احتد النقاش ، ووجه
أحدهم كلامه لقناع الفتاة ذي الملامح الجادة : قولي ، ما رأيك ، ماذا
نصنع ، ما رأيك بتوزيع المناشير ؟

وتتحمس الحمقاء وتخطط .. وتنفلد .. آلة من الآلات البلهاء المنومة
تنوعاً عقائدياً .. فتاة من فتيات المدينة تلعب أكثر من دور ، ينزلق على
وجهها أكثر من قناع ..

لكنه وجهي الحقيقي ، وجه العجبرية يسخر من الحماسة ، وضجيج
النقاش في أذن الأبدية طنين بعوضة .. لا شيء يهز ابنة الشوارع المظلمة
الفارغة وخطاها التي تجهش على الأرصفة الخشنة ..

إنها تحب الحبر والحق والحرية والمبادئ التي تدعو إليها الأحزاب جميعاً
لكنها ليست مسؤولة عن أي شيء في هذا العالم .. ليست مسؤولة عن
أحد ، لا أحد يهمه أمر أي إنسان آخر ، وكلنا حبات غيب متفرقة
انفردت من عنقود مجهول ولن يلم شعنها تشريع او عقيدة او نظام ..
لماذا أناقص نفسي ؟ ما معنى رغبتى الطاغية برسم ابتسامة على شفة
جدي ؟

ما معنى خوفي على ابتك من أن تكون مثلي اذا غادرتها ذات يوم ،
عجبرية بلا مرفأ .. لماذا أدعي ان لا ارتباط لي بالآخرين ؟
ولكنني لا أدعي ذلك ، انني أحيا بصدق عزلة شهاب يهوى وحشته
لعله قناعي .. هو الذي يرتبط بهم بطريقة ما ، قناع الفتاة المهذبة صار
جزءاً من وجهي ، ترى لو انتزعت هل يتبقى أي شيء تحته ؟ ألم يتأكل
وجه العجبرية مع الأيام ؟ لو هجرت قناعي هل يتبقى لي اي وجه ؟
ترغبني الصورة وأهرب منها الى الشرفة .. وفوران الوجوه المحموم

ما زال يلاحقني .

... الباردة صباحاً ، والمطر يغسل نوافذ سيارة كمال التي حملني بها
لأرى دارنا الجديدة التي تم إعدادها والمطر يبيكي ويبكي لتبدو الشوارع
والوجوه من خلاله غريبة وسحيفة البعد . كأنها ذكرى دامعة لحكاية تشرّد
غالية ، همس كمال : اني سعيد بك ... لا أستطيع ان أصدق انك
ستكونين لي بعد أيام ..

ولم أقل له انني أنا أيضاً لا أستطيع ان أصدق .. أحسست انني دمية
مقيدة بخيوط لامرئية الى أصابع لاعب مجنون يحلو له أن يحرّكنا كما لا
نشاء ، يدفع بنا الى حيث لا نريد ، يتشّثل من دربنا الأشياء التي نعشق .
ووجهك كان يذوب في المطر .. وحكاياتنا .. وأحزانك .. والغجرية
التي أضاعت المرفأ لما فقدت وجهها . وفقدت وجهها لما علمت ان المرفأ ليس لها .
ويهمس كمال : ستغنين لي وحدي بعد اليوم ..

يضحك القناع بفرح عروس صغيرة تقبل على حياتها الجديدة .. وينحل
وجهك في المطر .. بعد غد أرحل معه .. هذا الليل متى ينحسر ؟ اني
متعبة ووحيدة كالآلهة وكالأبالسة .

أعود الى غرفتي .. أرتدي ثيابي وأنا لا أدري ما أفعل .. أسير نحو
باب الدار .. أفتح الباب لأخرج .. الى أين ؟
وأعود الى غرفتي .. أرتمي منهكة على سريري .. تنهار مدينة الأرق
على رأسي .. تراكض الوجوه .. وتلدور ، تعول ، تضحك ، تصرخ ،
تقترب ... أسقط في هوة عميقة ... استسلم للعذاب المبهم الذي لا يوصف ..
العذاب الذي لا يتركز في عضو من الأعضاء ولا ينبع من فكرة معينة ،
عذاب شامل ممزق يشمل ابعاد وجودي كلها .. وأستسلم ..

بصعوبة أفتح عيني .. ضوء الفجر ينسكب من النافذة خافتاً رمادي
البريق .. أنفض من غيبيتي صافية الحزن ، كصخرة طهرتها الرياح والأمطار ..
يجب أن أسير قليلاً وحدي ، يجب أن أرسخ هدوئي .. أن أستكين

لمصيري المفجع الذي لم أصنعه أنا ..
أفتح باب الدار بهدوء ، ما زال جلدي واخوتي في براري الأحلام .
أنا في الشارع وحيدة .. الشارع الطويل الحزين الذي ينسحب الظلام
الى زواياه بينما الفجر القضي يحتل أرصفته ويشع من النوافذ المبعثرة .. لم
يستيقظ أحد بعد .. ما زالت المدينة تغط في النوم ، تنعم بالموت الموقت ..
وأنا العجربة التائهة في مدينة الأساطير النحاسية تبكي المرفأ الضائع ..
تبكي الدروب التي نجبر على السير فيها ، والغرباء الذين نقضي رحلة العمر
معهم ونمثل السعادة وفرحة اللقاء ..

هذا انسان يطل من بعيد .. يسير ببطء في أقصى المنعطف .. يتجه
نحوي .. يقترب .. يضرب الأرض بعصاه .. انه صديقي في الشارع
الميت .. صديقي في المدينة النحاسية .. صديق تشرد في الفجر الذي لا
يريد أن يضيء .. يقترب .. يسير متجهاً نحوي تائهاً لا يراني .. يا لله ..
انه أعمى . صديقي أعمى يضرب الأرض بعصاه ويسير في دروب مجهولة
لا فرق لديه بين الفجر والفسق .

وأحس بارتباط عميق بيني وبينه .. وأسير الى جانبه .. دون أن يسمع
وقع خطواتي ..

أسير الى جانبه أتخسس الأرض بعصا نظراتي وهو يتحسسها بعصاه ..
انه يتحدث .. يحدث نفسه .. لا يعني ما يقول .. وأنا أيضاً أهمهم .
أحدث نفسي .. ونسير .. ونسير .. ونلوح من بعيد كإنسانين صديقين ..
يغمرنني ارتياح مفجع فأنا معه أمثل أقصى ما يمكن أن تصل اليه أمتن
الصلوات الانسانية .. بلا زيف وبلا افتعال للحديث ..

والى جانب الأعمى أسير .. كل يحدث نفسه .. وتطلع الشمس ..
وينسكب الناس في الشوارع .. وتفور فقاعات الوجوه حولي .. ويضيع
الأعمى مني في منعطف ما ..

القيد والتأبوت

وتمزق ظلمة غرفة النوم الأنيقة صرخة ميرنا . صرخة فيها من الأنين
اليائس أكثر مما فيها من النداء المستنجد .

ويقفز فؤاد من سريره ليضيء النور بينما تستحيل صرخاتها الى كلمات:
« فؤاد .. مات أبي .. مات أبي .. »

يقرب منها ويمسك بها من كفيها . يحاول أن يغمرها بتظرات دافئة
حانية ، ولكنه رغمًا عنه يحس برعدة باردة وخازة تبتلع جسده بينما هو
ينظر الى عينيها السوداوين ويرى أنها ازدادت اتساعاً وعمقاً ، وان أشباحاً
من غيوم سود معولة تدور فيها كدوامتين مرعبتين في عيني عرافة ..

– ميرنا .. ماذا حدث ؟ كنت تحلمين ..

– للمرة الثالثة .

– كضالك أوهاماً ..

– وكان أبي يلتهب فوق غابة موحشة ..

– كضالك أوهاماً ..

– وكانت النجوم فوق الغابة ترسل أضواء حمراء كاللهب الذي يخرج

من فم تين ..

– كضالك أوهاماً ..

— ولم يكن يصرخ أو يستنجد .. ثم سقط بين الأشجار سحابة من
رماد ..

— كفى .

— ثم هبت ريح مشحونة بالعويل وبموج شرير كأنياب ذئب أعمى
وغمرت الغابة ..

— ميرنا .. ما هذه الأوهام يا عزيزتي ؟

وتصمت ميرنا ، ولا يجرؤ فؤاد على النظر في عينيها ثانية ، ويهرع
ليطفيء النور خوفاً من عيني العرافة .

تتهدد ميرنا بارتياح حيناً يرتمي الفجر من النافذة كأنها قضت الليل
كله وهي تفرغ أمواجه السود بعيداً .. وبصدفة مثقوبة ..
وها هي أمواجه قد انحسرت ، والشمس الحبيبة ، كم تحبها اليوم
لأنها طلعت أخيراً ..

لم تعد تستطيع الانتظار . تركض الى الهاتف أصابعها تشنج فوق
القرص وترنجف ، بقلق متهم ينتظر القرار الأخير ..

— ألو .. أريد أن أتحدث مع أبي ..

صوت ممزوج بالدهشة يجيب : ولكنه نائم .. هل أوقظه يا سيدتي ؟
— أجل !

تمر لحظة صمت تحسبها طويلة ..

وتسمع صوته الحبيب متخفماً بالنعاس :

— ألو .. ميرنا ..

— صباح الخير .. (يسمعها مرتعدة لاهثة) ..

— هل جرى شيء ؟ ما بك ؟

— أبداً .. لا شيء ولكن ..

- انها السادسة صباحاً .. هل حدث شيء ؟
- لا .. آسفة ولكنني ..
- ماذا ؟ قولي .
- أحيت أن أذكرك بموعدا الليلة ..
- طبعاً حبيبي .. سوف نسير عندك كما اتفقنا .. والآن .. قولي
- السبب الحقيقي الذي جعلك تهين الآن .. هل فؤاد يخبر ؟
- أجل . انه قائم .
- والأولاد ؟
- لا تقلق . لا خطأ في الدار . الخطأ في ساعتي التي تشير الى الثامنة
- والتي جعلني أزعجك .
- هذا غير صحيح ..
- لماذا ؟
- ساعتك هدية مني انتقيتها لك بيدي . وأنا عادة انتقي الأشياء التي
- لا تخطيء .
- وتصمت . كم نحب ذكائه حتى حين يوقع بها . ستعرف .
- وينقلها بضحكته الحلوة وهو يقول : على أية حال أنا مسرور لسماحي
- صوتك .. الى اللقاء .

آذار جنبة شريفة انطلقت في شوارع بيروت تنفخ الريح الدامعة بالمطر،
وتكدس آهاتها المثقلة بالغيوم على صلب الشوارع الخزينة .
وميرفا ، رغم الغرفة الدافئة وضحكات الضيوف المرححة ورائحة الشراب،
تمس بضيق عجيب .
تمس أنها وحيدة تسير في الشوارع الطويلة الخزينة وان الريح الدامعة

بالمطر تمزق خديها وعينيها وأهدابها .. تسير بحثاً عن شيء تخافه .. قلقة
كان ضربة مجهولة ستنفذ عليها ، بقسوة ، بطريقة ما .

يميل عليها فؤاد هامساً : ميرنا ماذا بك ؟

تبسم ، ويتذكر الموناليزا : لا شيء يا فؤاد .

وتتأرجح النار فجأة في ركن الغرفة . يرى اللوامتين الحماوين في
عينيها الغامضتين كعيني عرافة .. ويحس بالرعدة الباردة الوحشة ، وتعود
ضحكة أميل لتطرد كل شيء من عينيها ومن عروقها .. البرد ، ودوامتا
الدم ، والشوارع الحزينة ..

وتأمله وهو يتكلم دون أن تسمع ما تسمع .. هذا الوجه الذي يتقد
حيوية وجمراً ، هذه الملامح التي تنبض عضلاتها برقصه الحياة المرحية ،
هل يمكن أن تبدأ .. لا .. لن تستلم لذلك التذير الموجه في صدرها ..
لن تستلم لأحلامها المرعبة .

وتعود ضحكة أميل لتطرد كل شيء .. يطفح وجهها بشراً وتعديدها
لتأخذ الكأس التي أعدها فؤاد لها . وابتسامة دافئة . ونمر يصحك . وأما
رائحة . وصورة أبيها على الحائط وراءه . والأولاد نائمون . والغرفة
دافئة . كل شيء بخير .. لماذا تهرب ؟

ولكن شيئاً غريباً دخليلاً على الأصدقاء تحسه يتسكع في الغرفة . وتلفت
حولها .. من الغريب ؟ من الدخيل الذي كانت تبحث عنه وتخافه في
تيهها المبهم في الشوارع الحزينة الفارغة ؟

من الدخيل ؟ لا تراه .. لكنها تشم رائحة كآبة عتيقة تفوح من
كيانه المبهم .. لكنها تسمع همهمات الشرسة عقب كل ضحكة من ضحكات
أبيها . لكنها تحسه محشواً في غملم الستائر .. في المخمل الأسود السني
يغطي منضدة جانبية صغيرة عليها تمثال أسود لحيوان غريب الهيئة ، حيوان

خرافي تجمعت الممجية والشراسة والعشوائية والسخرية في اقتراجه أنيابه
المديبة .. هذا التمثال ، لا تلدي لإلام يرمز ..

تسمع أباهما يهتف فجأة : لقد أحضرت لك هدية يا نمر ..

ضاحكاً ، يسأل نمر : أظنك أحضرتها رداً على هديتي الفاخرة .

— وما هي هديتك الفاخرة ؟ تسأل ميرنا .

— لقد أهديت والدك .. قيداً ذهبياً نعمله به الى الذين حكموا عليه

بالاعدام في البلاد المجاورة ..

ويخرج أميل من جيبه قيداً ذهبياً اسطوري النقوش كأن صائغه من

غير البشر .. بينما يرفع نمر رأسه ضاحكاً :

— نخب لإعدام صديقنا العزيز ..

وتتفحص ميرنا كأنها تسمع مسرحية مذهلة وتنظر الى أمها لورا مستنعدة

بينما يشرب أميل ببساطة .. ويشرب نخب لإعدامه ..

وتحس حاجتها لأن تصرخ . لكن نظرات فؤاد المحذرة بالمرصاد ..

انه يفهمها أكثر مما ينبغي .

ويكمل أميل بينما هو يضع القيد الذهبي على محمل المنضدة الصغيرة

أمام تمثال الوحش المجهول : والآن ، خمنوا ماذا أحضرت لنمر .

— لا شك انك أحضرت لي هدية من صنع الصائغ نفسه .. الآن

أفهم لماذا سألتني أن أرشدك الى من صنع القيد وادعيت انك تريد شراء

سوار للسيدة لورا ..

— فعلاً لقد ذهبت الى الصائغ نفسه .. سرت كما قلت لي الى شارع

الزعقة ، ودخلته من جهته الشمالية وبدأت أعد المخازن على الرصيف

الأيمن حتى وصلت الى المخزن السابع ..

— اذن فقد قابلت الرجل العجيب الذي حدثك عنه ..

- رجل ؟ سمع كذلك مجازاً اذا أردت .. انه لا يشبه الباعة أو الرجال في شيء .. انه ..

وترهف ميرنا أذنيها لسماع وصف الرجل العجيب الذي يشتريان منه هداياهما ، ولماذا هو عجيب ؟ لكن أباهما يحسك فجأة عن وصفه كأن قوة لا تقهر تسطر على لسانه ..

- انه على أية حال صانع مدعش . لقد أوصيته على سوار للسيدة لورا فرفض أن يصنعه . لكنه أبدى استعداداه لصنع هديتك عسن طيب خاطر ، وكاد يرفض الثمن .. قال انه سوف يتقاضى الثمن من .. ممن ؟

- لا يهم . دعني أقدم لك الهدية الرائعة .
وتحمد ميرنا وهي ترى أباهما يخرج من جيبه تابوتاً ذهيباً صغيراً .
ورغم امتناعها لا تملك إلا الالتجاء بدقة صنعه بينما تهمس السيدة لورا منومة : حقاً ، كأنه ليس من صنع البشر ..
يتفجر نمر ضاحكاً بمرح عجيب :

- يا للهدية الرائعة ! تابوت رائع ، ثمين .. سأحتاجه ذات يوم بشرط ..

- ماذا ؟

يفضحكان ، وتفتعل ميرنا الضحك . تجاربا أمهما وفؤاد .. ويمرر اميل التابوت الى ميرنا وأمها وزوجها اللذين يقبضون عليه واحداً بعد الآخر بضيق مبهم ويدعشون إذ لا يحسون له وزناً في أيديهم كأنه سحابة وهم ذهبية ..

وأخيراً يصل الى يد نمر الذي يطبق عليه بكلتا يديه في حنو عميق ويهزج فرحاً : عظيم يا اميل ! انه يتسع لي .. أظنه مريحاً ..
ثم يضعه فجأة الى جانب القيد فوق المخمل الأسود أمام تمثال الوحش

للغامض السخرية ..

وتتفشي السهرة وهي لا تسمع شيئاً سوى آذار ، الجنية الشريرة التي انطلقت في شوارع بيروت الطويلة الحزينة ، وفي د شارع الزعقة ، وأمام المخزن السابع الذي اشترى منه هداياها البغيضة ..

وقبل أن تنام ، تتذكر ان ضيوفها قد نسوا هداياهم ..
وتعود الى الغرفة فترى القيد والثابوت أمام تمثال الوحش المجهول ذي الأنياب الساخرة .. ولا تجرؤ على الاقتراب منها أو لمسها لأنه ينخيل إليها ان تمثال الوحش يقهقه بصوت مسموع ..

ترفع ميرنا سماعة الهاتف بتكاسل .

- ميرنا .. صباح الخير .

- أهلاً ماما .

- كيف أنت ؟

- بخير .. ما أخبارك ؟

- لا شيء .. سافر اميل ونمر .

- كيف ؟

- بالطائرة .

- وهذا الجو اللعين ؟

- قال ان الجو بالذات يغريه ..

ترفع ميرنا سماعة الهاتف بتكاسل :

- هالو .. نعم .. نعم .. ماذا ؟

تصرخ فجأة وقد استحال كسلها الى تحفز نمرة مفتوحة الجرح :

- ماذا ؟ ماذا تقول ؟ مستحيل .

تصرخ. سماعة الهاتف تسقط من يدها وتنوس معلقة في الهواء كلدراعي
يائس يهوي ..
— لا يمكن أن يكون أبي قد مات . لا يمكن .. طائرته سقطت في
البحر ؟ مستحيل ..
وتركض باكية مجنونة الى سيارتها ، وتندفع بها في الشوارع التي ظالما
عرفته وأحبته ، الى داره .
تتسلق الدرج ولما تمتح آثار أقدامه عنها .. تدخل الدار مجنونة ...
هذا مقعده .. ما زال موضع جلسته فيه مقعراً .. لا يمكن . أين ..
أين أمها ؟
— ماما .. ماما .. البابا مات .. مستحيل .. قلت انه سيمود ..
متى ؟ متى ؟

...

أيام من المباب الأسود الملطخ بالدمع . يبدو ان اللين يلدهون لا
يرغبون في العودة . ان أحداً منهم لم يعد قط ..
وفي الشارع ، يشيعون جثة نمر في تابوت ، لا تجرؤ على أن تطل
من النافذة لتراه ، لا بد أنه ذهبي اللون ..
أما أبوها ، فسيظل أبداً بلا تابوت ، مقيداً الى أعماق البحر حيث
الصمت والظلام الملون الرهيب .. آه كم كان يكره الصمت !
وتنفجر دوامة الدم في عيني العرافة بينما تدخل أمها صارخة : ميرنا ..
ميرنا .. أين هدايا أبيك ونمر ؟ أين القيد والتابوت ؟
— في مكانها حيث تركاها .. على المنضدة الصغيرة .
— لم أجد شيئاً .
— لعل أحداً قد غير مكانها .

- سألت الجميع . قالوا إنهم لم يروا شيئاً ولم يلمسوا شيئاً . وبدت الدهشة على وجوههم وأنا أصف لهم القيد والتابوت ..
وتسير ميرنا نحو الغرفة بصمت جريح مليء بالكبرياء .. بصمت من بدأ يجد الحقيقة .

كانت واثقة من أن أحداً لن يجد بعد اليوم القيد والتابوت . فالقيد..
القيد تراه الآن يشد أباها الى أعماق البحر حيث الأعشاب الرخوة وأسرار القاع ..

والتابوت .. تراه أيضاً في الضيابة نفسها يضم جثمان نمر ! لقد قال نمر انه مريح .. تراه وجده هكذا حقاً ؟
بصراحة تخاطب أمها : لا تبحي ، لن نجدهما .
- لماذا ؟

- لأنهما من المخزن السابع الذي ..
وتلتقي نظرات الأم وابنتها . ومضة برق تصل بين عيونهما . فهما بصمت ما لا يفسر ..

ميرنا تسير نحو « شارع الزعقة » . تدخله من الناحية الشمالية . تعد الدكاكين واحداً بعد واحد على الرصيف الأيمن .
آذار جنية شريرة ما زالت تنفخ الريح الدامعة بالمطر والحويل الغامض . وهي تقاوم فكرة مرعبة جاءت لتؤكد منها ..
إنها تحصي المخازن : مخزناً . اثنين . ثلاثة . أربعة . خمسة . ستة .. ستة مخازن فقط .. اين المخزن السابع الذي اشترى منه هدايا الموت ؟

من هو الصائغ العجيب الذي أمسكا عن التحدث عنه في اللحظة الأخيرة ؟

لم يكن في وجهها دهشة ، فقد كانت واثقة من أنها لن تجد
المخزن ..

كان فيه رعب حاد مستلم .. ادراك مكثف للحقيقة المفجعة ..
للمخزن السابع في كل مكان والضايق الذي يهدي الجميع .

الصبيح العاصم

على شرفة القصر أقف خائفة ضائعة ، جمرة شتاء شتتها بين الموانئ
فما أضاعت في عيانت خوفها منارة ، ولا ومض هذب .

سما المدينة ترعف الضباب والمطر ، رائحة الحريف ، رائحتك ،
شممتها في كل مكان ذهبت اليه .. رغم كل ما فعلت وما قد تفعل ..
لم أحقد عليك .. ولم أمقتك . كان علي أن أبتعد ما دمت قد طلبت
ذلك .. كان علي أن أمضي كي أظل أحبك دونما مهافة .. ثلاثة أعوام
وأنا في لندن أتم دراستي العالية كي أظل بعيدة .. ثلاثة أعوام وأنا لم
ألق منك كلمة ، ولم أسأل عنك قط ..

وها أنذي قد عدت ليطل شبحك من كل مكان ويسد منافذ الحرب
كلها .. ها أنذي الآن أقف خائفة على الشرفة ، أتأمل قطيع الضيوف
الذي جاء لتحيي .. وهاماتهم التي تضيع خلف البساب الواسع وتبدو لي
من الأعلى منحنية كأنما هي تقدم ولاءها لأبهة القصر وضخامته .. أحاول
أن أتلهي على شبحك الحبيب البغيض بتأمل ثياب النساء التي تلتصع حليها
في الظلمة .. وتتوهج ألوانها حينما تسقط عليها أضواء المدخل .. وهكذا
عدت الى سوق الغرور أتأمل مدينتي من بعيد .. اني أعرفها .. انسي
أحبها وأحضرها .. أحس اني غريبة عنها ، وأحس اني مشدودة الى
أضيق زقاق فيها بقدرية مبهة عجيبة .. بالقدرية نفسها التي تدفعني الى
أن أظل أفكر بك على الرغم مما فعلت .. على الرغم من انك طردتني

ذات مرة بلا ذنب .. أحقاً انك وعدت أبي بأن تجسيء الليلة لتعزف احتفالاً بعودتي ؟ أحقاً انك أضحيت أغني وأعظم فنان في المدينة وان أجمل النساء يسجدن لأناملك المبدعة ؟ أحقاً انك فرضت اصبعك السادسة على المدينة كلها ودخلت الشهرة من بابها الضيق ؟ إن كنت قد فعلت ، فأنت عظيم حقاً كما عرفتكَ دائماً ! هل تصدق ؟ أمي التي كانت تأنف من تحيتك ، أمي نفسها حدثتني عما يسمونه جاذبيتك ، وقالت لي انك يا زميل الدراسة لم تعد فقيراً ، وانك توهجت ، بعد سفري بأشهر ، نجماً من نجوم مدينتنا . كم يسعدني ذلك .. اني رغم كل شيء لا أحقد عليك .. لا .. ولم أكن بحاجة الى كلمات أمي لأذكرك ، أنا التي أتأمل الوجود من خلال كفك العجيبة بأصابعها الست منذ التقينا للمرة الأولى.. تراك تذكر ؟ تراك تذكر يوم جئت الى الصف بعد الوقت المحدد بدقائق ، ولثلا أعرض نفسي مدة طويلة لسخط الأستاذ الغاضب جلست في المقعد الأول الذي صادفني وكنت تجلس يا خالد هناك .. وقبل أن أنصت الى حديث الأستاذ ، وجدتني أنتفض بخوف .. كانت هناك على المقعد يد .. يد عجيبة مخيفة لها خمس أصابع عادية كما للأيدي جميعاً ، ولها اصبع سادسة متمردة وقحة انتظمت بلامبالاة حقيقية الى جانب بقية أخواتها الخمس .. ووجدتني دون قصد مني أشارك الزملاء في نظرات الفضول المنصبة على يدك ، وكأنما أحست اليد المسكينة بذلك ، فتقلصت أصابعها الخمس العادية وانكمشت الى الداخل وظلت الاصبع السادسة متحدية وظل الزملاء يتأملونها وشحنات القسوة والبغضاء تود لو تصعقها ، لو تسم عفويتها وطيبتها . ووجدتني أنتزع من نفسي عيوني الآخرين المدفوقة في نفسي . وجدتني أتأمل اصبعك السادسة بنظرة حيادية صافية.. وكانت اصبعاً متمردة متكبرة ..

وأحسستها فجأة كائناً طيباً لا ذنب له لي انه موجود .. وكائناً مدهش التحدي والنبل .. ولعلك لاحظت شحنات حقدا الشريرة، وكان المدهش

الذي هزني هو انك استالت يدك الثانية من صدرك ووضعتها الى جانب
أختها على المتضدة بلامبالاة محبة .. وكان فيها ست أصابع أيضاً! وأمنت
لحظتها بأنك شيء يختلف تماماً عن بقية الزملاء ، انك تصفع وضاعة
الناس وفضولهم بوضوحك ولامبالاتك وعزوفك عن الاحساس بالذنب
الموهوم .. وكان علي أن أرى الوجه الذي يحمل لعنة هذه اليد ، وكان
وجهك يعكس ما توحى به اصبعك السادسة .. كان عوالم غني ولامبالاة
واكتفاء .. رائعاً كنت .. حقل سنابل أنفضجته الشمس، رائعاً وجدتك ..
هادئ الوهدات رزين الصخب .. رائعاً كنت لما بسمت في وجهي بحنان
كأنك فهمتني .. ملأنتني بغبطة أول شراع لثم نسمة .. يا أبدع نسمة ..
يا أنت .. كنت تعرف انني أحبيتك حقاً وأحييت أن أقاسمك حياتك ،
آية حياة .. أن أبذل البيت الفخم لأعيش معك في الدار المتواضعة، كنت
تعرف انني ما أحبيت إلا اصبعك السادسة .. أنا وحدي من دون الناس
جميعاً أحبيتها .. وجدتها شيئاً ناشزاً مدهشاً في سيمفونية المدينة .. وأحييت
سموك وأنت تحملها وتواجه وضاعة العالم المتألق بها .. بقبحها وصدقها ..
وأحييتك وأنت تواجه قسوة فضول الآخرين باستهتار واعتزاز .. كنت
تفهم معنى التغلب على الاحساس بالذنب الذي يكبلوننا بأهدابه حينما نختلف
عنهم في شيء ما .. كنت بكلمة واحدة اصبعاً سادسة كبيرة متحدية
نظيفة لا تشبه أحداً في شيء ..

أجل .. أحبيتك هكذا .. وهكذا وضعت يدي الطفلة في يدك البدائية
التي غسلتها الشمس ولم تدنسها المدينة .. وهكذا اكتشفنا الشاطئ الحلوى ..
يا خالد .. اني أراك الآن كما كنت أراك كل أمسية مع كل غروب ..
اني أحس التعب المخمور في وقفتنا .. نهوي الى الرمل .. الملم بأصابعي
مساكب الشمس عن جبينك أعد خطوطه ، تطفح عيناك بالحمرة ، أشربها
من أهدابك ، شفتاي برك صيف عطشى ، يا لفيثك المنعش ، تموت
الشمس نستسلم للظلمة ، لآلاف النجوم تنهل من ضياء همساتك ، لآلاف

النجوم التي ترشقها في عتمة شعري .. أزهو بها على الصبايا كل الصبايا ..
يطلع القمر .. ينوس بين غيمتين حيناً تعزف على قيثارتك .. ما كان
أزكى أناملك ، ما كان أبدع ألك التي لا يشبهها لحن في المدينة ..
ألك الموج المستسامة المشبعة بثقافة إنسانية كاملة ، ألك ذات النكهة
التي لا تشبهها نكهة ، ألك العجيبة كأصبعك السادسة العجيبة . كان
يخيل إلى أنك تعزف بها وحدها ، تبدع ، تختلف عن الآخرين بها
وحدها .. يا خالد .. حيناً أذكر ، بدهشي أننا استطعنا أن نفرق ..
لم يكن بيننا حجاب .. كنا شيئاً واحداً ، كنا سقتسم مصيراً واحداً ..
تحدى المدينة وأموال أبي وتزوج .. لماذا طردتني ؟ أنا جمره الشتاء
الحزينة لماذا شتيتي ؟ الذكرى تسحقني .. بعد سنوات ثلاث ما زلت
أتمرق شوقاً إلى لقاءك وخوفاً من لقاءك .. ازداد النضاق بأعمدة الشرفة
وأنا أنتظرك .. خائفة ضائعة كوثي يترقب حكم آلهة الغامضة التي لم يفهمها
أبداً .. وأنا يا صديقي قد اقتنعت بأنني لم أفهمك أبداً إلا بعد فوات
الأوان .. اقتنعت بأنني لم أفهمك يوم حملت إليك هديتي لعيد ميلادك ،
وأنا أقول لك : أتمنى أن تحتفل بعيدك في العام المقبل في بيتنا . وجهك
ظل وديعاً حنوناً حتى فتحت العلبة : هديتي إليك ، وانبتق منها وميض
ماسي وهاج .. وأخرجت منها زرين ماسيين لتضيء السهرة كأننا من
أثمن ما تحوي المدينة .. لكنك لم تشكرني .. لم نسم في وجهي .. صمت
وليتك ظلت صامتاً .. ثم انفجرت فجأة وأنت تتحب وألقيت بهديتي
الماسية إلى أرض كوخك المتسخة .. ثم طردتني من حياتك بوحشية ..
ما زلت أسمع صبحاتك « أينما الحمقاء .. اذهبي ولا تعودي أبداً أينما
المخادعة .. هل تجرؤين على الزواج بي . اذهبي » ..

ومضيت .. وتوقعت أن تقول شيئاً .. أن تلحق بي .. أن تعذر ..
أن توضح الأشياء . وانتظرت طويلاً وصمت طويلاً لكنك لم تفعل ..
وحلت أشواك الكبرياء ولم ادن منك .. ذهبت ببساطة لأنهم دراسني في

جامعات لندن .. ألم أقل لك ان أبي لم يكن ليرفض لي طلباً؟ ومضيت ..
ورغم الأشياء كلها ، بين جفني خباتك كأسمى مقدساتي .. حملت صورتك
وظفت بها العالم ، فما مزقتها ربيع لفحتني عند جسر واترلو ، وما طمسها
فتف ثلج في برج إيفل ، وما شوحتها شفتا شاب أشقر في فيينا ، وما
عبث بمعلمها ليالي الدراسة والتعب .. وظللت أنت أنت .. تضحك ..
تجابه العالم بأصبعك السادسة . وظللت تعليني لغزاً مبهماً .. وظللت أبدأ
أسئال .. لماذا تخلصت مني فجأة وهذه القسوة والغموض ، وأنا التي
ولدت في صمت الغابة ضباية متكبرة صامته ، لماذا ألقيت بالزرين الماسيين
الى الزاوية المظلمة ؟

الليل يلسغني بصقيعه .. سوف أدخل الى الناس الذين جاؤوا لتحيتي ..
لا بأس .. سألقي نظرة أخيرة .. بالله .. ها قد جئت اني أعرفك .
ها قد جئت مضطرباً بالليل والحريف ، اني أعرف مشيتك وقامتلك ..
اني أعرفك ، لو اني أبكي .. لو اني أغني .. لو انك تحملني وتذهب
بي الى عوالم وأزمان حقيقة البعد .. ها قد وصلت الى الباب الضخم ،
يخيل إلي انك تحنو هامتك لتدخل .. وأنت أيضاً صرت تحنو رأسك
للقصر يا خالد ؟ الباب يبتلعك ، لكنني ما زلت معك .. أحس انك
تدوس البساط الآن بقدميك .. أحس انك تتسلق الدرج الواسع .. تدخل
الى القاعة المليئة بالناس .. يتحلقون حولك ، غانية تصافحك ، عوانس
يلاحقنك .. أحس انك تتلفت حولك مستطعماً .. عيناك تبحثان عني ..
لست في القاعة ، لا تبحث .. اني هنا أمضغ أيامي في قلعة السأم ..
اني هنا جمرة الشتاء الحزينة ، ويداك تتحسسان الجداول الصلدة الطحلبية ..
ماذا تريد أيها الغريب من جديد ؟ أي يؤس نحمله يذاك ؟ أي عذاب
تحفيه اصبعك السادسة ؟ أي مصير دام ؟ ألا ترى .. انني متعبة ..
متعبة .. ثلاثة أعوام وأنا أحلك بين جفني .. ثلاثة أعوام والاهانة تأكل
من أعصابي ودمي ، ويظل حبي أقوى من الاهانة .. يا أنت .. يا اصبعاً

سادسة عجيبة تتحدى المدينة .. أنت ما لم أستطع أن أكونه .. مرة ثانية
تطل الخادمة .. أعرف أنها جاءت لتناديني .. سوف أدخل بعد دقائق ..
قولي لهم أن يبدأوا .. تمضي وأعود وحيدة من جديد . وأطل على المدينة
المستسلمة .. أراها خلف ظلال أصابع يدك الست ما زالت تعرف الغبار
والمطر . كفك العجيبة كم لاحقتني .. ما هذه الألحان التي بدأت تنسكب
من الداخل مع الدفء المشبوب .. انك تعزف .. لا شك في انك تعزف ..
خيوط ألحانك الشاحبة تقيدني .. تشدني الى الداخل .. الى حيث الناس
في ثيابهم الثمينة ومقاعدنا الفخمة .. لا أحد يلحظ دخولي .. كلهم
ينصت لعزفك .. ها أنت جالس الى البيانو وقد وجهت ظهرك إلى الباب
الذي دخلت منه .. كتفاك .. ظهرك رقبتك .. اني أعرفك .. رأسك
البيضوي المحبب . هذا مقعد اهوي اليه .. أغمض عيني .. أحب أن
أعود الى دنيا ألحانك أمضغها ، أمتصها ، أحيا بها ، أسجد لها ..
استسلم للنغم وأنصت .. ما هذا اللحن الماجن الملون الأجوف .. لا يمكن
أية اصبع سادسة أن تعزف هكذا يا خالد .. انهم يصفقون . تعود الى
العزف .. لم يعد في ألحانك أي مضمون إنساني .. أية رعشة وجدانية
صادقة .. أنغامك أشبه بوجه عجوز صديء ينوء بالاصباغ والألوان
السائحة .. أصبعك السادسة لا يمكن أن تعزف هكذا .. لا يمكن أن
تبدل نفسها لتصفيق الهاتفين .. اني أعرفها جيداً .. اني أحبها .. زران
ماسيان يلتزمان مع حركات يدك .. سبق أن أهديتها لك يوم طردتني
وقدلت بهما الى الوحل .. ماذا حدث ؟ أي غموض يحوطك .. أي سر
تخفي في حناياك .. لحنك يفرق من جديد في سطحية مؤسفة .. يصفقون
لك ، أكاد أبكي أبا الفنان الميت ..

يا خالد .. يا أنت .. يا حطام أنت .. ماذا صنعت بي وبنفسك ؟
وتتوقف عن العزف تلتفت ، يلتفون حولك مهتئين .. أصبحت بائعاً
عظيماً في سوقهم .. ماذا دفعت يا ترى ؟ يلحظون وجودي .. يطبقون

علي مهشين مستقبليين .. كيف أنت ؟ هل ستعودين الى لندن لتحصيل
الدكتوراه ؟ هل أحسست بالشوق الينا .. هل .. هل ؟
استحيل آلة رائعة من آلات المدينة .. أصافح .. أبتم .. أنحني .
يخفقني الغثيان .. أضحك .. أمقتكم .. أشكركم .. تتجه أنت نحوي .
يا لقامتك المحببة .. اني أرعد .. قلعة السأم عجاوى .. أنا جمرة الشتاء
الحزينة .. اني أخافك أيها الغريب .. ماذا تبغي مني عذابي ؟ أفتأسك
صارت قريبة .. وهجها يدفني .. يتمسح برجهي .. تمتد يدك لتصافحني
يدك الحبيبة كم أنا بشوق اليها .. كم أود أن أسكب نفسي في قبضتها ..
يدك الغالية أمد يدي لأصافحها .. ما هذا ؟ أين .. أين الاصبع المتمردة ؟
أين اصبعك السادسة ؟ أين اصبع الاقعة واللامبالاة .. تجمد يدي . أعين
الضيوف مسطرة علينا .. تتمتع بالمشهد البائس .. أنا من جديد آلة بلهاء
من آلات المدينة . أصافحك وأنا أبتلع دموعي .. يا أنت .. يا حطام
أنت .. لماذا صرت هجيناً ؟ لماذا قطعت اصبعك السادسة ؟ هل صرت
تخشى نظراتهم وفضولهم ؟ هل أصبحت تسعى لارضائهم .. ما أقبح
الزرين الماسيين ، هل استعصت بهما عن اصبعك السادسة ؟ كان علي أن
أدرك ذلك منذ سمعتك تعزف .. وأعود أستجدي من وجهك كبرياءه
وعزته .. لا أجد شيئاً .. الى الشرفة أنسحب .. لا أحد يهمني .. أنا
جمرة الشتاء الحزينة . من جديد أزحف الى قلعة السأم .. من جديد
تعلو الجدران الصلابة .. أسند خلدي الى العمود الرخامي .. أرفع مع
سماء المدينة الضباب والمطر والدم .. ارفع ايامي وذكراك .. مرة قسما
وجهك صلبتها فوق قسما وجهي .. أذكر ابتساماتك فأبتسم .. من جديد
أقلع مع الصمت الى موانئ لم تلوها ضحكة رجل كاذب .. فأدم لم
يولد بعد .. وحواء لن تسجد لرخاوة الطين .. وقع خطاك خلفي ..
التفت اليك .. يؤلمني أن أراك .. ماذا تتوقع مني ؟ تقرب مني أكثر ..
أزداد التصاقاً بالعمود .. ماذا تريد ؟ تخاطبني ، أسمع صوتك يتوسل .

ماذا أريد ؟ تعرفين يا سها ماذا أردت دائماً .. أنت .. أهتف بك :
أنا ؟ ما هذه الأحجيات .. هل نسيت انك كنت قد طردتني ؟
انك تتحدث .. تتحدث بشراهة كما تأكل العجائر .. لم أعد أسمع ما
تقول .. سحابة جراد تتناثر من فمك .. من تزلفك وتوددك .. ماذا تريد
أيها الغريب ؟ اني أفهمك .. اني آسف لك .. انسي أغلق أبوابي من
دونك .. ألا تفهم ؟ أحببتك اصبعاً سادسة عجيبة - شيئاً حقيقياً جريئاً
يصفع المدينة بتعاليه ولا مبالاته .. ولكنك حنوت هامتك .. لكنك في
هيكل التخاذل والرياء قطعت اصبعك .. حلت جثة شخصيتك الحقيقية
جواز مرور الى أسواق الرياء .. لكنك أنت لم تعد أنت .. أصبحت
كبشاً من القطيع .. كبشاً كبيراً ثميناً ، لكنك كالبشر ، كملايين التافهين
المستسلمين الجبناء .. ماذا أقول لك ؟ انك لم تفهمني .. لم تفهمني أبداً ..
من جديد أصحو على صوتك وأنت تقول : ماذا ستفعلن ؟ لقد تنازلت
عن كبريائي وكرامتي كي أساويك مالا ومكانة .. دعينا نفزوج .
- لقد خسرت كي تكسبي .. وقتلت في نفسك خالداً الذي أحببت ..
ما كنت لأحب لك هذا المصير .
تجيبني معترهاً : ولكنك أنت التي دفعني اليه ..
- أنا ؟ أنا دفعتك اليه ؟
تصرخ حاقداً : أجل .. أنت .. أنت أثبت لي انك واحدة من القطيع ..
فحولت نفسي لأجلك الى كبش جديد .. حينما أهديتني الزرين الماسيين
آمنت بأن كل ما قلناه عن التضاهم والمشاركة كان زيفاً منمقاً ..
- لماذا ؟ اني لا أفهمك ..
- لأنك حين أعطيتني هديتك الماسية لم تلحظي اني كنت أرعد برداً ،
ولم أكن أملك قيصاً للسهرة ، حتى ولا رداء صوفياً .. وهكذا كان علي
أن أكون شيئاً يناسبك فعلاً : يشابهك ..
تصفعني كلماتك ، تمزقني .. انك تهمس : لن تري وجهي بعد

اليوم .. لقد حطم كل منا صاحبه .. تخرج دون أن تنتظر جوابي ..
إذا فقد أسهمت أنا أيضاً في قتلك ؟ يا لأعماني المظلمة المدللة التافهة ! اني
أحقد على نفسي كما أحقد عليك .. ان خطيئتي لا تبرر خطيئتك .. لماذا
داويت الجرح بالجرح .. لماذا داويت التفاهة بالضعف ؟ الى ضيوفي أعود..
لقد اختفيت من البهو .. لا فائدة من البحث عنك .. أي ارتباط لي
بك ما دام صداً نفسي لم يخالط صداً نفسك .. لقد مضيت ووجدت الحل
الوحيد الذي تبقى لنا ... أعود الى ضيوفي .. أنا آلة بلهاء من آلات
المدينة .. دمعة أضحكك وألهو وأفكر بك ، يا صنو ضعفي .. سقطت
أفئتنا ولم يعد بإمكاننا إلا أن نقف في الشمس كميذان القصب .. عارين
إلا من حقيقتنا .. لقد سقطت أفئتنا وأطل القصر من عيني قلداً بتكبره
ولامبالاته ، وأطل الكوخ من عينيك متزلفاً هجيناً ، فلتهرب بخطاياها ..
كل إنسان في المدينة قد خط حرفاً في سطر تعاستنا .. اننا نحن لم نعد
نحن .. هزمتنا .. هزمتنا المدينة يا خالد .. جعلتنا نخلى عن أصلتنا ..
عن قدرتنا على أن نحب .. على أن نكون شيئاً متميزاً .. اصبعاً سادساً..
فلنضاحك القتلة ولنرعى الدم والمطر مع سماء الخريف .. انها الثالثة بعد
منتصف الليل .. تعبت الدمى .. انهم يترنحون ويتدافعون قتلوا براءتنا
يا خالد في لحظة ضعفنا .. فاشترت لك الماس ببدل الخبز .. وقطعت
اصبعك لتبتاعني بها .. لانهم يودعون ويمضون .. يمضون مع بقايا الطعام
في أفواههم حكايًا وجوهنا السقيمة .. يمضون .. يمضون جميعاً .. وحيدة
مع أبي .. يعانقني وهو يهتف بحماسة لك ثروتي .. وأموالي كلها .. ماذا
تريدين أيضاً ؟

أمواله ؟ لماذا ؟ كي . أهدي كل إنسان يحمل اصبعاً سادساً زراً ماسياً ؟
كي أقتل الناس الطيبين ؟

— أبي .. أريد أن أعود الى لندن كي أتم دراستي ..

— ماذا ؟ أما كنت قد عزمت على البقاء ؟

- أربي .. يجب أن أرحل غداً .. بعد غد .. أتوسل إليك .. يجب
أن أمضي ..
يجبني كمادته : كما تشائين يا حبيبي ، لم أرفض لك طلباً طوال
حياتي ، اسعدي الآن ونامي ..
- سألتك بك ..

يخرج . أنا وحيدة في القاعة أمام الليانو .. تسقط نظرائي على سواربي
الماسي .. على ماساته التي تلتهم بتهكم مفعج .. أغرق في جمود الماس ..
أسقط على قطع الماس .. أسقط على أحد جبال الماس المهجورة .. قمه
اللماعة مدببة وحادة تنغرس في لحمي .. لحن يضيع في كهوف بعيدة ..
أغوص في صقيع السوار .. انتشل نفسي بصعوبة .. لا شيء .. لا أنت ..
لا كفك العجيبة .. لا شيء سوى صقيع الماس .
جبال الماس تنهار ، تنكاثف ، تنكاثف . قطعه تندس في في وفي
أذني . تقتلع عيني وتنغرس في موضعها ماستين .. أنا دمية بشرتها الماس ،
تركض وراءك في دهاليز مشوهة من أجل لقاء تصلي كي لا يتم . أنا
دمية الماس .. لا يهمني بعد اليوم أية غرفة أزين ، أية مائدة ، لأن
جميعي الأبدني هو انني عرفت نفسي ، وعرفتك .

الرجل ذو الهاتفين

كطليقة نارية طائشة أهم في الشوارع، وبيروت عجيبة صخب لامبالية،
وأنت يا غريب أبحث عنك لأنني اخترت لك أن تكون جلادي .
في بناء ما من هذه الأبنية المعلقة تجلس، وراء نافذة ينبت منها الضجيج
الذي يضمك أبداً في دوامته .

يمرون بي ، وجوه كاللجام المهرثة سوف أسفح لها كنوزي ،
وقسماتي جامدة مشدودة كزند تمثال روماني .. سوف أرقص طويلاً
وأغرس كعب حداثي الدقيق كالخنجر في قرميد ذلك القصر الذي عرفت
جدرانته معنى الفاجعة ، معنى الحرب بين اللحم والأعصاب في جسد
امرأة ...

« انها قديسة ، قديسة .. »

هكذا كان يقول لها زوجي وهما يغلقان الباب ، والرجل المشلول في
الأعلى .. لم يكن مشلولاً يوم كان يحملني ، يرفع طفولتي على كتفيه
كي أزرع في السقف حقلاً من شهب مراوغة ألاحقها في زوايا البيت
وهي تهرب مني ، لا ، لم يكن مشلولاً يومئذ ولم أكن قديسة ..
وكانت هي سائلة الدم الأزرق تحاول أن تعلمني أسماء أجدادي ،
تضربني كي أحفظ نصرت باشا وعزت باشا .. و .. كنت أكرههم ،
أنخيلهم قراصنة مقطعي الآذان ، ولهم أنياب طويلة تنحدر من أفواههم
مدبية ، وأنا أهني : « أبي .. لماذا تزوجتها .. لماذا هي أمي ؟ » ..

كطلقة فارية طائشة ما زلت أهم في الشوارع ، وبيروت عند الغروب
عجورية تصارع السأم بغناء جامع الضجيج ، وأنا نبع من ضجيج أحسني
أهدر مع العابرين ، أنسكب في سيولهم التي تجتاز الطريق ، أنفجر في
أبواق السيارات التزقة صراخاً ممزقاً مبجوحاً .. أبحث عن مكتبك يا غريب
لأنني اخترت لك أن تكون جلادي ..

من بعيد ، في مدينتي التي ما زالت تلف خطاياها بالحجاب والكفن
كنت أقرأ لك .. وكنت أحب تلك الحروف الراحشة كأهداب طفلى
حيناً ، وكأهداب خاطئة أحياناً . تلك السطور المجرحة أبداً بالعمق ،
بالفهم الكبير لمعنى الألم والرعب الذي ينبع من الوسادة ، بتفلى من
أقية الصمت حيث شلت أنوثة امرأة الى الأوتاد لتجلد ، والرجل المشلول
في الأعلى ، في الغرفة المشمسة على السطح يقرأ الأدعية لإله النافذة
المشمسة ! وعبارة قديسة يلصقونها على كل جرح ، على الباب الذي
يغلقانه وراءهما .. أمي وزوجي !
« قديسة .. قديسة » ..

وكنت ضفيرة أعشاب مستسلمة للتيار ، أتلقى تحت وقع الكلمة ،
أنهار . أضعف من أن أتمرد . أعزي نفسي بأنني قديسة لأنني أجن من أن
أكون إنسانة .

وكنت أعرف ان الدم الأزرق يتعري كل ليلة على فراشي ، يستحيل
أحمر أخضر أصفر نهراً من قاذورات .. وكنت أنا أغب النهر كي لا
يسبح في الشارع والحبي ويسقط فرميد قصيرنا فريسة لأحاديث سيدات
الحبي .. وكنت أدعي انني أصمت من أجل المشلول في الأعلى ، من أجل
المرأة الأخرى التي هي أمي ، لكنني حيناً كنت أدفن دموعي في الوسادة
لأدعي انني قديسة ، كانت الوسادة تبصق دموعي اشمئزازاً لأنها تدرك
جيداً انني لا شيء سوى ضفيرة أعشاب بحرية لينة .. بلا نبض .. بلا
صلابة ..

« قديسة » .. وتفهقه امرأة ما وترعبي الضحكة الوحشية . أتلفت .
لا أحد في الشارع الجاني نصف المظلم سواي . أنا قديسة أيتها الجدران
الصفراء المهترئة . قديسة من نوع خاص . غداً حيناً يلصقون على خدك
الشاحب إعلانات جديدة هي صوري ، وترين الوجه الناقم كوجه نمره
أكل الكلاب أولادهما ، وترين الساق عارية مسترخية تفهمين كيف
أصبحت الآن قديسة . ولن تري على الجسد العاري أي جرح أو
خدش ، ولن تقرأي كلمة قديسة ولكن حيناً تسقط المدينة في أحضان
الشتاء ويفسل المطر الصورة يأكل منها ، وترحف على وجهها
أضواء شارعك الباهتة ، ستعرفين معنى أن أكون قديسة لأنني استطعت
أخيراً أن أنمرد وأن أطمع جفني بمنجبر ضعفي . (وسأكون وقتها على
مسرح ما أغني للجاحم المهترئ . وأرقص . أغرس كعب خذائي الرفيع
في القرميد الأحمر لأدمره . أتقلب نشوى بين أذرع الموسيقى الماجنة) .

أريد ، أريد أن أمثلَ بِلُي ، أن أصلب جسدي عارياً فوق القرميد
الأحمر ، وأن أتركه للسكران يقطعون الأيدي والأرجل ويتساقون للء
أقداحهم من الدم ، وسوف تبكي أمي كلما قال لها واحد منهم ان دمي
ليس أزرق وانه أحمر ، كالحطيط ، كلمها !

كطلقة نارية طائشة ما زلت أهيّج في الشوارع . لم أعد أعرف
أين أنا .

يبدو أن علي أن أسأل إنساناً ما كي يرشدني إليك . لقد ضعت
زمناً طويلاً . بل انني أردت أن أضيع . كي تزداد نار حقدني فأججاً .
كي تلتقط عدسات مصورك ثورة الجثث في عيني .

للمرة الأولى أريد شيئاً . وللمرة الأولى أحس أنني أكبر من قديسة
لأنني صرت شيئاً يقرر مصيره . مصير امرأة ميتة تسمى .

سوف تجد أكثر من عنوان مثير للحكاية التي سأقصها عليك .. «سليمة

ملوك العمانيين في سوق الجوارى ا ، .. لا .. إنه كثير الخدلة كالأسانلة
الذين كانوا يجيئون إلى في الدار .. ليكن : « واردة الملايين تهدي
نفسها للملايين » .. لا لن يعجبك هذا أيضاً .. على أية حال سوف
تجد العنوان بنفسك وسأحدثك بكل شيء . لقد اخترتك لتكون جلادي
وأنا واثقة أنني أحسنت الاختيار ، رغم أنها المرة الأولى التي أمارس فيها
تجربة الانتقاء .. حتى زوجي لم أخبره أنا .. كان الرجل الوحيد الذي
يلائمني في المدينة .. انه مثلي ، وارث ، وأزرق الدم ، هكذا قالت
أمي منذ عام ، وكان ذلك يكفي . لقد أحسنت الاختيار لنفسها ا

بوق سيارة . ألفت . لوحة الرقم حمراء . أستوقفها . على المقعد
أرتني . أخطبه بصوت لم أعده في نفسي . صوت يشبه ضحكة المرأة
في الشارع الجانبي حينما لم يكن فيه سواي : هل تعرف مكتب مجلة
« الشباب » .. يهز برأسه . ينبع بوقه في أحد المنحنيات . يدور بي
من جديد في شوارع طويلة مضيئة .

انتهت أسطورة الغروب ، وها قد بدأ الليل يهب في الدروب كريح
قاسية توقف فراشات الأضواء . غداً ، في زاوية ما تضيء لوحة تحمل
اسمي ، تغمز للعابرين أن تعالوا .. هنالك جسد ولد يدين وعينين وساقين
جميلتين ولكن بلا كرامة . حزمة أعشاب أحسن لفها . اني أكره
نفسي .

يقف السائق . أهبط بسرعة . يصرخ بي : أين الأجرة يا .. ؟
وكانت عيناه تنطلقان باتهام صريح ، لكنني نسيت فعلاً . أقرر ذلك ببلاهة
كأنها إنسانة أخرى تلك التي أتحدث عنها . لا أشعر بأي عجل
أو حرج . لقد متُّ حقاً . هذا رائع . يجب أن أكون قد انتهيت كي
أسفح الجسد على الموائد مسترخياً ابلة التعبير . وإذا ما اكتشفت ذات
ليلة ان عضواً من أعضائي لم يمت وانه أنقبض استمتراراً لما لسعته شفتنا ثمل

فسوف .. آه .. لماذا أفكر هكذا .. انني ميتة .. لقد انتهى كل شيء ..
لم يبق إلا ان تنهار جدران القصر وتتبدى الغرف للجميع بكل ما فيها
حقيرة قلدة مرعبة ، فتأتي مجلتك وتنسل تحت القصور العاري كسباط
الريح ، ثم تحمله وتدور به من دار الى دار ليرى الدم الأزرق في وجه
المرأة الأخرى ينتحب .. ينبخر ..

المصعد أمامي . لماذا لا يسمونه مهبطاً ؟ لم هذا الفاؤل كله ؟ مصعداً
وأضحك وأنا أغلق بابي . هلتي النمرة التي نهشت الكلاب أولادها تخيفني
حينما تضحك . يتوقف . أخرج . باب المكتب الفخم عريض ومفتوح .
أدخل . لا بد ان هلتي الحسنة سكرتيرتك . تتأملني بإمعان وأنا أقول :
أريد أن أرى الأستاذ طارق لأمر هام .

— من أقول له ؟

— قولي له .. لا أحد .. أعني .. انه لا يعرفني ..

تحررتني قليلاً من نظراتها المتفرسة . تدخل الى غرفتك . تغلق الباب
وراءها .. أحاول أن أسترق النظر لأراك فأفشل . أنتخلك كما توحى لي
شهرتك الكبيرة عجوزاً في الستين .

سوف تتأملني طويلاً من وراء نظاراتك السمكة حينما أدخل ، وسوف
تستمع إليّ باهتمام وأنا أتحدث طوال ساعات ، ولن تزيح نظراتك عني
إلا لتبتلع بعض أقراص الدواء او لتخرج منديلك وتسل فيه . هذه
الشيخوخة أحبها لأنها شيء ناضج طالما وجدت في كلماتها الناضجة
عزاء لي .

تخرج إليّ وبصوتها الناعم تقول : تفضلي وانتظري ..
وأجلس ، وأنا أتمرق لرؤيتك .

سوف أخبرك بكل شيء وأخضك بالخبر الذي سيهز مدينتي .
سأقول لك ببساطة انني أريد أن تكتب أنت قصتي . أنت وحدك قادر

على أن تفهمها ، وتفهم اني أريد أن أهب التفاحة الزرقاء بأن أنطح بها
الى درك التفاحة الحمراء .

وستكون آخر رجل أضافه ، وأنا أحمل اسمي : صفاء . وغداً أجد
لي اسماً آخر وثوباً آخر ومساحيق كثيرة لن تعرفني خلالها .

جرس يقرع . تقول لي : «تفضل» كم هي جميلة هذه السكرتيرة .
أقدم ، أفتح بابك أيها الإله بلا خشوع . اني سعيدة لأنني فقدت
رحدو الفعل الطبيعية ازاء الأشياء التي أقلرها . بسرعة أدخل وأغلقه
ورائي ، كأنني أخشى أن تتسرب منه الى الخارج ، وأجد نفسي من
جليد وحيدة مع ضحكة النمرة . وأخيراً أهوي بنظراتي الى المنضدة ،
والى ما وراء المنضدة ، اليك .. أجدد !

تنهض لترحب بي فيقرع الهاتف ولحسن حظي تلتفت اليه . أقف
لأناملك . أهذا هو أنت ؟ هل يمكن أن يكون هذا هو أنت ؟ أين
الرجل العجوز ؟ ماذا أقول وهذه القامة منتصبه كمنارة ، وهاتان العينان
تشعان دفئاً ونشاطاً وضياء كضجر ربيعي ، وهذه الرقبة ، لم تدل انتصابها
ربطة عتيق ، فظلت بدائية ترتعش عروقها مع نبضات صوتك القوية التي
تسكبها في الهاتف ..

صوتك ، عميق ومرح كمدافن الكتوز .. أين الرجل العجوز ؟ وهذا
الصدر مشلود متين وهذي الشعيرات البيضاء في القودين تهدهدان بجبثها
كل طفولة .. طفولتي ماتت .. لماذا أرتعد ؟

أي شيء فيك يثير حنيني الى لذة بكاء ، دخاني أسفحه أمامك ..
أبلى به الدراعين القويتين اللتين بدتا من القميص ذي الأكمام القصيرة ..
وأشعر اني عاجزة عن أن أقول شيئاً ..

إنك تتحدث وتهز رأسك في ضجر بينما نظراتك تنفض ، تسلطها على
وجهي فتخرجني كالأنواء الكشافة .. وأحاول أن أتذكر كيف أبدو في

المرأة لأعرف ماذا ترى . وأحس بأن نظراتك أصابع عجيبة تتحسس وجهي ورقبتي وتربت على شعري بحنان ثم تحملني من ملهى ليلي أمثل فيه بجثتي الى أمسية ربيعية تفوح من ترابها رائحة الشهوة وزهر الليمون ورائحة رجولتك .

يبدو من إيماءات وجهك ان حديثك الهاتفي قارب على الانتهاء . آه ماذا أقول لك . تراني أجرو على أن أحدثك بما فعلت البارحة ؟ تراني أجرو على أن استعيد ملامح الوجه الجامد المشلول في الأعلى ؟ الفجيرة الزرقاء في القلب الذي قلت ؟ وهذا الحنان في وجهك ، هذا الحنان الذي تستحقه طالبة صغيرة مهذبة ، تراني أراه يتحول الى نظرة جلدية خطيرة ؟

جرس آخر يقرع قبل أن تنهي مكالمتك الأولى . هاتف آخر الى جانب الأول . ترفع السماعة الثانية وتضعها على أذنك . أيها الرجل ذو الهاتفين : لم أكن أدري انك رائع هكذا . لم أكن أدري ان الخريف الحلو يقطن في القود الأشيب وأن الرجولة لا تنمر إلا في ثنايا الوجه المتعب .. وجه رجل ذي هاتفين !

يتنهي حديث الهاتفين . الصوت العميق الغامض كمدافن الكنوز يوجه الكلام لي . يقول بطلاقة وألفة رائمة : « أهلاً بك .. أجل ، لا أعرفك ولكنني أستطيع أن أخمن من أنت » ..

تلطفتي كلماتك . لا أجيب . تلاحظ ارتباكك . تقول بمهارة : « اعتقد أنك طالبة جامعية .. هذا الوجه النظيف .. هذه البراعة في الملامح والبساطة في الثياب .. وطالبة مجدة أيضاً .. »

ووجدتني أضحك . ولم تضحك النمرة التي أكلت الكلاب أولادها . ورغم ذلك ضحكت بينما تابعت : « جميلة جداً .. أجمل مما ينبغي لرجل مثلي أن يرى » ..

أحد الهاتفين يقرع . بحقد أحمس : « أكثر مما ينبغي لرجل ذي هاتفين »
أنك تتحدث : « أجل ! المزمرة الأولى وقعتها . قلت لك لبحث عن
الكليشة الأخرى .. » ..

لن أنظر اليك . هذه الانحاء التي تنفجر منك تحرك في الجنة أحزاناً
دفيئة وصدى نجيب منقطع في أقبية لا شمس فيها . سوف أقول لك حالما
تنتهي من المخابرة الهاتفية ..

البارحة ، لما أغلقنا الباب وراهما بعد أن قالوا اني قديسة ركضت الى
ذلك المشلول في الغرفة العلوية وكان ما يزال يسبح إلهه ، وانقضضت
عليه ولا أدري ان كنت قد صرخت في وجهه ، ولكنني أمرته بأن يكف
عن مناجاة إلهه وان ينهض ويأخذ زوجته من فراشي الى غرفتها او
يموت .

ولم يقل شيئاً . لا أدري ان كان قد سمعني أم لا . ولكنني اليوم
باكراً لما صعدت كمادتي لأفتح له النوافذ كسي يبدأ من جديد صلاته
وجدته منحجراً وصامتاً كمادته ، لكن أهدابه لم تكن لترتعش ، وكانت
عيناه زرقاوين ، زرقاوين حتى لكان السم الأزرق سرى فيها وقتله .

لماذا لا تنتهي سريعاً لأقول لك كل شيء وأسريح !

الهاتف الثاني يقرع . تتحدث في الساعات معاً .. وأنا لست طالبة
مهلبة . انني امرأة بائسة . نظراتك عادت تحاصرني كالأضواء الكشافة .
أغبط وأنت تغلق الهاتفين فجأة . تهتف بحرارة وأنت تنهض بحوية انسان
يستطيع أن يحملني بين ذراعيه ويسير بي على الرمال ليلة كاملة : « يبدو
ان الحديث هنا مستحيل .. وأنا لم أتناول غذائي بعد . هل تقبلين بأن
نقتاتل وجبة لا اسم لها معاً ؟ » .. أصمت .. تستمر أنت : « حيث
أسألك عن اسمك على الأقل ثم أعود الى مكثي » .. لا أجيب !

كان هنالك إحساس عميق بدأ يسيطر على حواسي . هنالك شيء
ينبض ، يتحرك ، يتلجلج ، يشن .. كانت هنالك امرأة ممزقة في قبر ما

تحاول ان ترفع حجر القبر عن صدرها بعد ان كادت تلغى نفسها حية .
لم تنتظر جوابي . لعلك اعتدت على طاعة من حولك لك . تفتح لي
الباب . نخرج معاً .

« تجدينني في مكان سهرتي المعتاد » تهز السكرتيرة الحساء رأسها ،
وتأملني من جديد كما تنظر المرأة الى المرأة . لليلة هي نظرات حسد
النساء الأخريات .

أزداد اقتراباً منك ونحن نخرج . جرس أحد هاتفك يقرع من الداخل
ولا أدري لماذا أرى شريطي هاتف طويلين يخرجان من أسفل باب مكتبك
كالأفاعي الرقطاء وبزحان نحو قدميك ليلتف كل منها على إحدى ساقيك
بأحكام حتى القدم ويجذبانك نحو الوراء ، ولكنك ما زلت الى جانبي .
وحيدان في المصعد . أرتجف كمراقة كأنني لست ميتة ! وجودك
لليلة ومرهق كعالم مباهج لا تهدأ . يتوقف المصعد .. فغادره .. أحسني
صغيرة وأنا أرفع رأسي الى وجهك والى قامتك الطويلة المتصبية الى جانبي .
في سيارتك الكبيرة أجلس قريباً من أنفاسك . بيروت ، العجوبة
التي تصارع السأم تضيء وتنطفئ .. دار ضخمة فخمة . دار حقيرة الى
جانبيها . تماوت الأصوات والأضواء ونحن نصعد في طريق جانبي . الضوضاء
المتخثرة في جنون المدينة الملوقة تموت على عتبة المكان الذي توقفنا أمامه .
أرفع رأسي وأقرأ : « شاليه سويس » نهبط . يرحب بك رجل لا
يهمني أن أنظر الى وجهه . يبدو أنهم يعرفونك جيداً هنا .

يقودنا الى منضدة صغيرة . استرخي في مقعدي . ربح البحر تهب
ومعها أصدااء غناء ملاحين يبحثون عن المجهول . بائسة . اني امرأة بلا
مجهول .. بلا انتظار .. جثة جاءت تصلب نفسها ، تقطع الأيدي والأرجل
وترشها مع الليل والحشرات ..

ترى لمن كان الرجل المشلول في الأعلى يرفع صلواته ؟ أحسها في
ضمير الليل تبحث متلاحقة خائفة عن الإله الذي رفعت اليه ، وأحسها

نمر أحياناً أمام عيني خائبة كالفيلق المهزومة ..
فلأبدأ .. فلأحدثك الآن .. لماذا لا أجزؤ ؟ الأموات لا يرهبون
شيئاً . لماذا أنا خائفة ؟ عطشي . ابريق الماء أمامي . أمد يدي لأمسك
بالقبضة . في الوقت نفسه تمتد يدك . تسقط يدي في حصار يدك .
تلمسها كفك الكبيرة التي تستطيع أن تغطي وجهي كله . رعشة شهاب
يحترق تستمر فجأة في جسدي كله . تشعل لفاقة .
الدخان يتسرب من شفتيك غموراً مترخاً . اقرب قليلاً حتى تغمر
غيمة الدخان وجهي ثم استنشقتها ، امتصها بشراقة ، أثلق فيها طعم
شفتيك ! الثلج في قم شاحبة نائية بدأ يلوب . أحس انسكاكه الوخاز
في هشيمي موقظاً ممزقاً كوداع الريح تعصف من جديد في اليلدر ، لكن
جثث شتول اقتلعتها أقدام دخيلة تغطي كل شيء ..

ويشدني صوتك عن اليلدر ونواح الريح في القمم الشاحبة ..
- والآن ، حدثني عن نفسك ..

أحدثك عن نفسي ! باختصار : أمي ... وزوجي ! بالتفصيل :
جثث لأقول لك أنني جسد ميت مسخر للانتقام .. ولكن بقية من
حياة ما زالت تحتضر في أعماقي تحت أكوام الرماد . وأنت أيها الغريب ،
ترغمني على أن أشعر بأنني ما زلت أحياء .. من زمان ، كنت أقرأ لك ،
فأسمع في القبو حفيف أنفاس انسان . عجوز . هرم ، لا فرق . أي
انسان .. وأحياء مع حروفك لحظات مقتضية أدرك منها ان الجمرات ما
زالت تحتضر ..

واليوم ، أواجه الأنفاس ، فإذا بها شابة حارة كالبحار ..
أيها الصيف الأسمر ، يا غريب ، ماذا في وجهك يهزني ؟ يزيح
أكوام الرماد عن جمراتي .. فأحياء وأحياء وألف أحياء ..
الخادم يهرول : « سيدي ، يطلبونك على الهاتف » .
تنهض . أتأمل القامة الفارعة . أخض لأن شريطي/الهاتفين ما زالا

يشدائك بعيداً الى دوامة من سماعات الهاتف تضيع تحتها ..
لن أقول لنفسي أنني أحبتك . لن أقول أنني مغرمة بك . لا شيء .
لا شيء سوى أنك رجل . رجل حقيقي يهزني لأنني ما زلت أنثى وما
زلت أحيا ..

كيف ، كيف أقول لك ما كنت قد عزمت على قوله ؟ وكيف
أصنع ما كنت قد عزمت على صنعه ؟ كيف أوزع الجسد على المواعيد
مسترخياً أبله التعبير ما دام لم يميت !
ما ألد أن تعود الى جانبي . صوتك العميق كمدافن الكنوز أسمع من
جديد : « والآن قل لي ما اسمك قبل أن يقرع الهاتف الثاني » ..
لن أقول شيئاً . لم يعد هنالك أي مبرر لوجودي معك ، ما أبدع
أن أكون معك .

— أنا .. أنا معجبة ..

لم أكن أكذب ، ولم أكن صادقة . فلاني قد جئت لا لأنني معجبة
ولكن لأنني ميتة .

— شرف كبير أن يعجب هذا الجمال الرائع بي .

وتتدفق الدماء في أعصابي فلا أحس إلا بحرارة الدم ووجهه .
ميتة ! وأضحك .

— تطربني ضحكك أيتها الصغيرة الهاربة من الجامعة ..
وأضحك ..

لعلها الآن يغلقان الباب . ذلك لم يعد يعني . ذلك المشلول في الأعلى
مات . فليكن ، مات زوجها .. والمرأة في القبر ما زالت مشلوبة على
الأوتاد حيث تجلد ، لكنها ليست أنا .. من أنا ؟ لماذا لا أكون تلك
الصغيرة الهاربة من الجامعة ؟
— ماذا بك ؟

أحلم .

- بماذا ؟
 - بالهرب من الجامعة .
 - معي ؟
 - أجل ! اذا كنت تستطيع الهرب !
 - أنا أهرب ! من ماذا ؟
 - من الرجل ذي الهاتفين ...
 - هل ضايقتك هاتفني ؟
 - هاتفك ..
 يعود الخادم مهزولاً . الهاتف طبعاً . تنهض . يتقبض صدري . أحس
 ان الأسلاك التي كانت تلتف على ساقيك تطول وتطول وتطوي جسديك
 بأكمله حتى لا يبدو منك شيء ، ويفيك الباب بقعة سوداء كبيرة من
 الأسلاك والأصوات الهاربة من الأسلاك . بقعة من ضوضاء منظمة !
 إذن ما زلت أحيماً .. ماذا بعد ؟ لا شيء .. لن أكون صغيرة
 الأعشاب المستسلمة .. سأتركها في القصر يسبحان في الدم الأزرق يستحيل
 أصفر أحمر أخضر نهراً من قاذورات .
 سأكون كما ظننتي يا غريب . فلأبدأ من جديد . تأخرت أيها الرجل
 ذو الهاتفين . أهكذا تعيش ؟ ولكن ، لماذا انتظر ! ماذا انتظر ؟
 فلأهرب .. فلأهرب بينما أنت تنوس بين هاتفيك ..
 أقفز عن المقعد ملسوعة . انطلق راكضة في دروب العودة حيث يورق
 الليل والمجهول .. لم أعد امرأة بلا مجهول ..
 ماذا ستقول حينما تعود وتجد مقعدي فارغاً ؟
 ستقول : المعجبة الطفلة تأخرت فهربت .
 وسوف تتناول طعامك بكل هدوء . لو انك تلدي !
 لكنك لن تلدي ، لأننا إذا ما التقينا بعد أعوام ، فستجد وجهي
 نظيفاً كما أحبك ، وجه طالبة هاربة من الجامعة .. ولن تلدي أبداً .

هواية متعبة

وجهه أشبه بلوحة تجريدية .. شقان ضيقان ، وكتل من التواءات ،
وخطوط هوجاء مثورة بينها ، وأنف مرمي بإهمال ، وفجوة ينبعث
منها صوته المسيطر لكل مريض يدخل عيادته : تمدد على الأريكة ..
أجل .. هكذا .. استرخ ، سوف تحدثني عن كل شيء .
وكان هو يقبع وراء هذه اللوحة التجريدية والنظارة التي تمنطليها طيلة
ساعات النهار . وكان يحس إحساساً عميقاً بالأعراض التي بدأت تتأبسه
منذ أيام ..

يهمس لنفسه : « لا .. لأنني لا أشعر بضيق في الصدر ، ولا بازدياد
في ضربات القلب : ولا باختناق في الحلق وحاجة عميقة للبكاء .. لا ..
لا رب في أنني واهم » !

وقع أقدام على السلم : « لأنها هي .. أنا واثق من أنها هي .. »
وتراقص خطوط اللوحة التجريدية في نشوة ، بينما يهمس بوقار
وبصوت تفوح منه رائحة الأدوية : ولماذا تكون هي ؟ في البناء نفسه
طبيين نفسيان غيري .. وعشرات المحامين والمهنيين .. وماذا ان كانت
هي ؟ .

يزداد وقع الأقدام على السلم .. تراقص خطوط اللوحة التجريدية في
نشوة ، انه يحس إحساساً مبهماً أكيداً بأنها هي .. لقد اعتاد على ان
يقوم بتحليل كل إحساس من أحاسيسه وكل خلجة .. فإعجابه بالسيدة

سلمى مرده الى عقدة اوديب ! وخوفه من العناكب يعود الى طفولته ..
وغرامه بالفيران البيض له علاقة بشعر بنت الجيران البرصاء التي كان يلعب
معه .. و ..

لكنه هذه المرة يقف أمام حالة مستعصية . حالة عجيبة لم يواجهها
من قبل حينما كان مرافقاً يتبع فتيات المدرسة المجاورة لداره .. ولم يواجهها
يوم حلل إحساسه نحو ابنة عمه وقرر انه يحبها بناء على الفقرات آ. ب. ل.
من أعراض الثوبات الهلانية . وتزوجها بناء على هذه الحيات ، ولم
يواجهها يوم ولد له توأمان .. فتاتان .. فحلل لنفسه أسباب ضيقه ،
وقرر انها تعود الى رواسب نفسية وراثية حلزونية متدنة ..

حالة عجيبة مستعصية هي تلك التي يواجهها اليوم !
الباب يقرع . تدخل الغرفة كضجر .. راثتها تطرد أمامها حروفاً
عتيقة تفوح منها روائح الأدوية. ترتعد اللوحة التجريدية ويهمس الكهف:
« أهلاً وسهلاً » .. يفتح الصوت العجيب : « شكراً يا دكتور » .
— كيف أنت ؟

خيل اليه ان هذا السؤال انبعث من رداءه الطبي الأبيض ، من فتحة
أكمامه او ياقته ، فهو لم يكن بحاجة لأن يسألها : كيف أنت .. من
الواضح انها تفيض صحة وحيوية وتماسكاً .. بل انه لا يستطيع ان يصدق
ان هذا الوجه هو نفسه الذي واجهه منذ أشهر خجلاً ذابلاً كتجم مطلقاً،
بينما قالت صاحبه بانكسار :

— أنا سوسن .. أنتمي الى أسرة ..

لم يسمع بقية حديثها .. كان يتأمل عينيها ... دوامتين من عويل
أخمرس .. كان يتأمل خليتها .. واحتين استباحها أعرابي فج .. كان
يتأمل ملائح وجهها أطلال أحقاد حزينة .. لم يكن بحاجة الى أن يسمع
بقية القصة .. لكن رداءه الطبي الأبيض قال لها بصوت جامد تفوح منه
رائحة الأدوية :

— ثمّدي على الأريكة !

واستلقي الجسد الدقيق أمامه .. وأطبق الجفنان على دوامي العويل ..
وبدأت تتحدث .. غناء عرائس البحر الباكي يشع من صوتها .. عرائس
البحر اللواتي قدن أشجع البحارة الأغريق من رفاق أوليس الى الهلاك ..
وهو ملاح ضئيل تائه في بحار شاسعة . يجب أن يدمي القدرة على رسم
مدارات الفلك ..

أشهر طويلة والوجه الذابل كالنجم المطفأ يطل .. والجسد يسترخي على
الأريكة .. وغناء عرائس البحر الهامس الذي يشد الى أعماق البحر يشده
الى موت مبهم ودمار ساحق محبب .. وتقول :

— أشكو من ضيق في الصدر وازدياد في ضربات القلب ، واختناق
في الحلق ، مع حاجة عميقة الى البكاء .. انني أحبه !

إنه لا يصدق أنها هي التي تقف أمامه .. كتلة الحيوية والفتنة منصهرة
رجراجة في الثوب السماوي .. كيف استحالت هكذا من قارة مهجورة
الى آماد من الخصب والاكتناز ؟

لا يجد ما يقوله .. لا بأس في أن يرحب بها من جديد :
— أهلاً وسهلاً .. يسعدني أن أراك هكذا .. قلت منذ البداية أن
كل شيء سينتهي بخير .. ما أخبرك الجديدة ؟

— الجديدة ؟ أجل .. ألم تنصحن بالبحث عن هواية أماً بها حياتي
بعد الفراغ الكبير الذي خلفته الصدمة ؟
— وهل وجدت شيئاً ؟

— أجل .. اكتشفت أنني أهوى ..

وسكنت قليلاً ..

— الخياطة ؟

— لا ..

— الرقص ؟

- لا ..
- الطبخ ؟
- لا ..
- البحث عن حبيب جديد ؟
- لا ..
- ماذا إذن ؟
- الأدب ! انني أكتب رواية .. وقد جئتكم بهذا الشأن !
- وما دخلي أنا بالرواية ؟
- سألت إحدى الأدبيات اللواتي سبقني في الدرب عما يمكن ان أفعل ..
- فقالت لي ان أحسن اختيار ثيابي ، وان أستأجر طبيباً نفسياً خاصاً !
- والشق الثاني من النصيحة ؟
- ينطبق عليك أنت !

ماذا سوى « نعم » يجرؤ على ان يقول لها ؟ كان عليه ان يقول لها : « تممدي على الأريكة .. يبدو ان علينا ان نبدأ من جديد » كان عليه على الأقل ان يرشدها الى جاره الطبيب النفسي الكبير الذي كان استاذة في الجامعة .. الدكتور بديع العلي .. كان عليه ان يسخر منها على الأقل .. انها لا تحمل شهادة ابتدائية .. هل تريد ان تكتب بأظافر قدميها قبل ان يجف عنها الطلاء ؟ لكنه لم يقل سوى نعم .. لم يقل انه يرى منذ الآن كيف يمكن ان تكون روايتها .. كيف ستبدو من خلالها شرقية « بالبكي » .. لم يقل لها لما صافحته سوى : « كما تشائين » .. ولم يجد لحالته تعليلًا .. اي تعليل .. انه لا يستطيع ان يفهم شيئاً .. أعماقه موجات سود عجيبة ..

تخرج من العيادة وتمضي، بينما تظل عاصفة العطر تعبث بردائه الأبيض . يطل من نافذة غرفته المرتفعة على القبو العميق الذي تركض فيه عشرات السيارات والمواكب البشرية .. يراها تصعد سيارتها بعد أن يفتح لها السائق

الباب .. وفجأة يفيض النسي من شقين في أعلى اللوحة التجريدية ..
يخلع رداءه كأنه يمزقه .. ماذا حدث ؟ لا يدري .. أعماقه خيطان دقيقة
متشابكة لم يعد يجد لها أولاً ولا آخرأ .. ماذا يصنع ؟

وتتجدد اللوحة التجريدية في نصر مهزوم .. لقد وجد الحل ..
يركض هارباً من عيادته نحو عيادة جاره .. يدفع الباب الذي كبت
عليه كلمات كبيرة .. « الدكتور بديع العلي » .. يتجاهل المرضى المنتظرين
يركض نحو غرفة الطبيب رأساً .. يجد استاذة الكبير واقفاً مع أحد
المرضى .. يتجاهله .. يمضي نحو الأريكة .. يتمدد والطبيب يرقبه برعب
وذهول .. يهني :

- فلنبداً .. أشعر بضيق في الصدر وازدياد في ضربات القلب واختناق
في الحلق .. مع حاجة عميقة الى البكاء !

لا بحر في بيروت

يسيران ، يدها الساذجة قابضة في كهف يده الكبيرة ، وجديلتها العريضة تهزج فوق ظهرها ، والشارع أمامها ما زال طويلاً يفتح في نهايته عند الأفق الوردي ، فإذا به والأفق شيء واحد . وهما يحسان أن الشارع لهما والأفق لهما وأن المدينة بأكملها ولدت يوم التقيا ، وسوف تختفي ، يتلعهما احدود شيطاني إذا ما افترقا ..

دمشق ، مدينتها الوديمة ، وقد استسلمت برعونة مثيرة لأصابع الصيف لتلونها وتزينها ، وتعبث بشباب حسانها ، فتقص كثيراً من أكامها وفتحات صدرها ..

والحب ، هذا الطائر العجيب ، الذي اتخذ لنفسه عشاً في صدرها الفتي لا يهدأ .. أبداً تحقق أجنحته . أبداً يغني ، يهلي، يضرب بمنقاره ، يريد أن يأكل كل ما في أعماقها كي لا يبقى سواه . كي نصير لا شيء سوى عش كبير له . وهي تقاوم وتمرد . لن تسمح له بالتسلل الى رأسها الصغير . تريد ان تحافظ على أشياءها الأخرى الكثيرة ، ارادتها ، عقلها، وما يشغل هذا العقل الساذج المتفتح والعالم الرائع الذي لا تريد لنفسها ان تراه من زاوية واحدة خلال عيني أيمن ، او الزاوية التي يحدها هو لها ..

إنها تريد منذ خرجت من مدرسة الراهبات ان تحتفظ لنفسها بعينيها ووجهات نظرها . لا .. لن تسمح للطير النهم بالسيطرة عليها. لن تكون مجرد جوف يردد أصدااء العصفور الشره .

وهذا الاحساس بالذات جعلها تنسى المقدمات التي كانت قد أعدتها
لمفاجأتها وجعلها تهتف فجأة : ايمن ..

- ماذا .. حبيبتي ؟
- قررت ان أسافر !
- ماذا ؟
- قررت ان أسافر
- الى أين ؟
- الى بيروت .
- لماذا ؟ (وكانت ولماذا تقطر مرارة ودهشة)
- لأزور أخي ، والبحر ، ولأتسجل في الجامعة هناك .
- في الجامعة ؟ كفتي عن هذا الهراء ودعينا نتزوج ..
- لا .. أريد ان أتمم دراستي الجامعية . وفي بيروت بالذات كي
أكون بعيدة عنك .. ألا ترى اني الآن شيء هلامي يبحث عن نفسه ؟
وبماذا أحبك اذا ضيعت نفسي فيك وكنت بلا شخصية ..
- هذه الكتب اللعينة التي تدمنين قراءتها ..
- آسفة لمقاطعتك . لا داعي للشجار لأنني أحبك حقاً ولكن، ما هذا
بكل شيء .

- ولكن ، أأنت لا تعرفين بيروت .. انها .
- لقد درست أنت فيها ، وأحب ان أعيش في الجو الذي عايشته ..
- سأكون أكثر قدرة على معرفتك وفهمك ..
- ولكنك ستصدمين بالجو هناك بعد ما ظلت طوال عشرة أعوام في
مدرسة راهبات داخلية .

- لماذا تخيفني من العالم وتريد ان تجعل من زواجنا هرباً لي ؟ هل
سأظل الى الأبد أهرب مما أخافك ؟ هل ستكافح لتحول لي دارنا الى
مدرسة راهبات جديدة وتدعي لنفسك ولي انك تفعل ذلك من أجلي ؟

— هذه الجنديلة التي صنعتها الراهبات لك في عشر سنوات لا تصلح للعالم وليبروت ..

أجابت في عناد دون تفكير : سأقطعها ..

— والجنديلة الأخرى في أعماقك ؟

— سأقتلعها وأقطعها أيضاً ..

— ولماذا يحدث هذا في بيروت بالذات ؟

— لأن فيها البحر .. البحر القديم الذي ليس دبراً كبيراً ولا امرأة مزيفة .. البحر المليء بالحب والتجدد والتنوع والضياء .. انه عالمي الكبير الذي قرأت عنه دون ان أعايشه .. الفردوس المفقود لروسو ودانتي و ..
— كفالك هراء ..

كانها تحلم لا تسمعه ! تسترسل ... بحر أزرق لا ينتهي لكل منا نصيب فيه .. زرقته حضارة السماء ، وطيره البيض ودعة النظرات كالجيران الطيبين . والأجيال التي تنبت من رماله سعيدة لأن الرجال توقفوا عن وأد حبيباتهن فيها .. و .. وأشياء أخرى كثيرة لا أعرفها بعد لأنني لم أخرج الى العالم ولكنني أحس أنها موجودة ..

عيناه تتأملانها بغموض كاهن أناني شرير تتكشف له الحجب عن نبوءات مرعبة .. يهتف غاضباً : هذا البحر الذي تتحدثين عنه مات منذ زمن بعيد .. ان كان هذا بحرك فأعلمي يا صغيرتي ان لا بحر في بيروت ..

— ماذا ؟

— لا بحر في بيروت .

ماذا يعني ؟ لماذا يضايقها ؟ يستيقظ عنادها الذي لم تفلح الراهبات في تفتيته . الطير في صدرها يقاوم ، ينقرها ، يحاول أن يمنعها . لن تراجع ..

تشعر بشيء من الحقد الغامض على أيمن ، تحسه كجندي فرّ من
المعركة وهو الآن يحاول منع كل ذاهب ليخوضها .. تعقب هذه اللحظة
المحنكة التي لا تطول دقائق وخازة من تأنيب الضمير .. إنه أيمن ..
أيمن الذي حلفت أن اكون له وكنت صادقة لما فعلت ذاك .. سأكون
لطيفة على الأقل ..

— أيمن .. سأرحل غداً صباحاً .. ماذا أحضر لك معي ؟
لم يجب . كان يعرف معنى البريق الجريء الذي اتقدت به عيناها ..
— أيمن ، قل لي ، ماذا تريد ؟ ربطات عنق أم ..
يقاطعها ببطء فدائي يحك مؤامرة : أريد قليلاً من ماء البحر ..
لا شيء سوى قليل من ماء البحر الذي تخبئ .. إذا وجدته ..
— ولكن أطلب شيئاً آخر ... شيئاً صعب التحقيق .. شيئاً له قيمة ..
يقول وكأنه عزم على أمر خطير : أريد قليلاً من ماء البحر في
بيروت . هذا طلبي الوحيد ...

...

قليلاً من ماء البحر ..
وتضحك عيناها في جذل . أيمن يحب أن يداعبها دائماً . يعرف
ولعها بالثياب الجميلة ويعرف أنها ستستهلك كل ما معها من تقود منذ
اليوم الأول ، ولن يبقى في جعبتها قرش واحد ثمناً لهدية له .. « هذا
هو السبب في أنه طلب قليلاً من ماء البحر ... يا لها من هدية رخيصة
مضحكة » !

وكادت عيناها تضحكان من جديد في جذل بينما هي تعد حقيبتها
الصغيرة قبل أن تنام .. لكنها تذكرت ان عيني أيمن كانتا تشبهان عيني
كاهن مرتاع لما طلب منها ذلك . وبدأت تحس في فها وخز الطعم ،
لكنها ترفض ان تصدق ..

(فليكن .. سوف ألبى رغبته على أية حال) ...
زجاجة العطر الفاخرة التي كان قد أهداها إياها منذ أشهر ما زالت
جديدة كأنها لم تمس . كأن العطر تبخر منها بطريقة ما دون أن تفتح .
كانت على عادة العاشقات المراهقات تعنى بها وتحفظ بها جديدة كأنها لم
تستهلك ..

سوف تملأ له الزجاجة الغالية بماء البحر ، ما دامت هذه رغبته ،
فستحققها رغم ما فيها من غرابة وغموض .

بيروت

وتراها من بعيد بينما السيارة تنحدر نحوها .. بيروت جنينة اسطورية
تنفث الضباب نحو الجبال .. تتعري من غلالاتها . تنبسط مغرية مشيرة
غامضة العري .. تكاد تسمع لشوارعها نبضاً يشبه نبضات القلب الحي ..
لكأن في الاسفلت ، في الأزقة الغامضة ، في البيوت المتدثرة بأسرارها
ومجاً وحرارة وحياة كما في خدي طفل متورد تفوح من فيه رائحة اللبن
والشبع والضحك ..

(لماذا أرتعد هكذا ؟ لماذا تثيرني رائحة الحياة ؟) ..

وتقترب السيارة من بيروت . (اني خائفة ، أحس بالإثم ولا أدري
لماذا .. عن اي شيء جئت أبحث ؟)

البحر يطل من بعيد هادئاً وعملقاً كشاب عريض الصدر مفتوح
الذراعين ينتظرها .. يلحساس يشبه لذة خيانة مبررة تتأمله .. تتسارع
أنفاسها .

جارها في السيارة بدأ باختلاس النظرات إليها (لم ينظر إليّ طوال
الطريق .. كيف أدرك انني استحللت أمام هذا المشهد الى أننى حقيقية ؟
بي نشوة عانس تزف الى حبيب غامض) ..

خيوط الشمس تنكب على بيروت بنهم (اني أعبد شمس الأرض
كلها .. أو من بأن لكل مدينة شمساً مستقلة ، وسوف أكتشفها جميعاً ..
هذه السلسلة اللامتناهية من الكهوف الملتهبة سوف أزورها جميعاً) ...
الطائر الصغير الذي اتخذ لنفسه من صدرها عشاً ينقرها بترق .

أختها صارت شيئاً آخر .. كيف ، ولماذا ؟ لا تدري . لقد استطاعت
ان تتبين ذلك منذ الوهلة الأولى بطريقة غامضة ..
قبلتها لما استقبلتها منذ دقائق كانت فاترة وسمجة كقدم دجاجة . اهتمام
أختها كله كان منصباً على طريقتها في زم شفتيها .
الدار رائعة . وكل جدار فيها بني خصيصاً من أجل اللوحات الثمينة
التي تزينه .

— ماذا تحبين أن تري في بيروت ؟
لكنها لم تسمع . كانت تبحث عن عيني أختها الضالتين في آبار من
الكحل .

— ماذا تحبين أن تري في بيروت ؟ ما بالك شاردة ؟
— أريد أن أرى البحر ..
— حسناً . سوف نسهر الليلة في مكان يطل على البحر .
تتعشها الفكرة . تنهض الى الغرفة الفاخرة المعدة للضيوف تغسل وجهها .
الفقااعات تغطيه ، وهي ترى بعينيها المغمضتين البحر ، بحرها الحبيب ،
وترى أشباح السفن التي رحلت طوال دهور تعود محملة بوجوه تشع بالحب
والتجدد والتنوع والصفاء والعمق والشباب الدائم ، وأصوات المجاديف
تختلط بغناء نسوة محلولات الشعر وقفن في الرتل البشري الكبير ينشدن
سعيدات بعودة آلهة الأرض القديمة الطيبة ..
تغسل الصابون عن وجهها . تحس بالماء البارد يتعشها . ترى أنها

تدس بوجهها في جلور الموج ، نحشره بين صخرتين من صخور الأعماق
لتأمل صفاء الأعماق وأسمائها الشفافة ... أنها تعبد الصفاء والحقيقة
الشفافة ...

...

الأضواء باهتة . الحلي الماسية عبثاً تسفح بريقها في العيون المطفأة ...
اختها ذات الجسد الضئيل تنوء تحت ثقل العقد الضخم الذي يعض رقبتها.
الفرقة الموسيقية ما زالت تعزف وهي تنسلق اللحن الصاحب الى وجوه
العازفين ، فتسمع وراء اللحن نجيب مسامها منجماً متعباً .. (هل يجب
أن يتمزقوا هكذا كي يقوموا على تسليتنا ؟) . الخادم ينحني أمامها
ويقدم لها الطبق الكبير (أشعر بالحجل حيناً يقوم عدد كبير من الناس
على خدمتي) ...

المكان لحن (جاز) متنافر الصرخات والزعقات ، لكنه بمجموعه
يشكل وحدة متماسكة من حيث التكلف والصنعة .. (أنا النغمة الناشزة
الحزينة الباحثة عن إيقاع .. ضفيري وحدها كافية لإيجاد النشاز) ...
تخفت الأنوار فجأة . ينسكب شلال نور شاحب على وجه غائبة
محلولة الشعر ، تغني بلغة لا تعرفها انشودة مثقلة باللوعة والترقب ، كأنها
شهقة ذعر في موكب يبحث عن البحر ويكتشف ان البحر قد مات ،
قد جف ، وان الشراع الأبيض اسطورة .. (اني أنا هذه المرأة الضالة
الباحثة عن البحر القديم بينما رماح النور الشاحبة تدقها على شاشة العيون
اللاهية) ..

أختها الجالسة الى جانبها تنحني عليها وتهمس : هذا أرقى مكان
للسهر في بروت .. هل أنت سعيدة ؟
ببؤس حقيقي نجيب : سعيدة جداً ...
تسقط نظراتها على وجه يدخل المكان . وجه مضيء يعوم في الظلمة

كان لا جسد له . وجه قوي معبر يقترب من المكان الذي جلسوا فيه .
يحتل المائدة المجاورة الفارغة . تهمس أختها : هذا أديب غريب الأطوار
اسمه سلمان عزمي .. انه شاعر كبير يظهر أحياناً في مجتمعنا (الراقي) ثم
يختفي مدة طويلة غير آبه لقواعد الذوق ، امكننا جميعاً نحب مجلسه ..
سوف أدعوه يوم أقيم الحفلة الساهرة تكريماً لك ...

تختلس النظرات اليه .. انه رائع ، حزين مثلي ، كأنه شهد مصرع
بحر ما ... ولما أراد العودة الى الشيطان العالية اكتشف ان بحره اختفى ،
ولما سأل عنه قال له أحدهم : البحر قد قتل .. دهمته حافلة في الشارع .
قال الآخر : البحر قد فرغ . عبأناه في زجاجات الويسكي .

قال آخر : البحر هرب . لاحقته راقصة من معابد التويست ذات
المصاعد الكهربائية وأرادت أن ترمي نفسها في أحضانه ، فخشي على أصالة
لونه من التغير الهجين .. وهرب ..

نرى لو هرب البحر الى دمشق ، أكان يملك فيها طويلاً ؟

نظرات سلمان تتأمل جدبيلتها وقتاً طويلاً قبل أن تلتفت الى سرب
الراقصات الذي تدفق فجأة . (ما معنى نشاؤمي هذا كله ؟ غداً ، بعد
غد أرى البحر بالطريقة التي أريدها . أخني لم تفهمني ، لقد حاولت
تكريمي حينما جاءت بي الى هذه العلبة المظلمة على البحر .. انها لا تدري
انني أريد ان أرى البحر بطريقي الخاصة .. أن ألمسه ، أنحسه ، أناكد
من انه موجود ...

انها لا تعرف ان جنوني قد بدأ منذ تجنعت وجوه شامته ساخرة في
عيني أيمن وهو يقول :

— اذا كان هذا بحرك ... فلا بحر في بيروت....

عشرة ايام في بيروت ا

يوم واحد طويل توالى فيه الأجزاء المضيئة والمظلمة ، وفاست شمس
عند الأفق عشر مرات من كبد السماء حتى كبد البحر .. هكذا جيئة
وذهاباً دون أي مدلول .

أختها تلازمها ، تفرض عليها تدليلها المرعب ، وهي غريبة ، كأنها
في وليمة فخمة ، لكن الأطعمة كلها اصطناعية .. بلا نبض .. بلا عير ..
والجميع يأكلون ، والجميع يشمون الزهور الاصطناعية ثم يمتدحون
العير .. أما هي فهي تركيبتها خطأ ما .. ما زالت غريبة ، ووجه أختها
يفقد في كل يوم أحد أبعاده ، وكل شيء يلوح مزيفاً وغير حقيقي .
البحر رآته كثيراً ، رآته من بعيد ، من شرفات المقاصف التي ذهبوا
إليها ، وكان دائماً ذليلاً مستسلماً للذعات شمس آب ، ولم تر فيه أبداً
سمكة تقفز ولا موجة تهزج ، ولم تسمع صوت المجاديف والأغاني .
بدأت تشك في ان البحر حقيقي هنا .. يخيل إليها انه لوحة رمادية
مدقوقة على الأفق .. لوحة صلبة .. وانها لو وصلت مرة الى المدعو
بالبحر في بيروت لاستطاعت السير عليه .. انه تنمة لاسفلت الشارع اهتم
الخبراء بجعل لونه أكثر زرقة .. هذا كل ما في الأمر !

أختها خلقت لنفسها مدينة لا بحر فيها ! وهي اليوم تحاول أن
تعودها إليها . لماذا لا ترحل ؟ (لن أهرب . بحاسة الخيول الوحشية
أشم رائحة الماء ... البحر لا بد من أن يكون في مكان ما ..)

...

هذا يومها الأخير !

هكذا ظلت تواعد نفسها منذ أيام ، لكنها تظل في بيروت . كأنما
في أحجارها وشوارعها قوة سحرية كقوة المبدوزا .. قوة حجرتها ،
صلبتها على عمود في وسط المدينة وعيناها موجهتان نحو البحر دون أن
تستطيع بكاءً أو حراكاً . والمنازة في مكان ما تغمر بسخرية كأنها وحدها
تعرف كل شيء .. (لماذا لا أرحل ؟) .. لا تدري ...

لا تريد أن تغامر فتذهب الى البحر وتكشف انه امتداد لأسفلت الشارع ولا تريد أن تعود دون أن تملأ الزجاجاة بماء البحر فيسخر منها ايمن : أما قلت لك أن لا بحر في بيروت ! ولكنها ليست بالسهلة .. أنها سعيدة بطريقة ما .. نحس ان في بيروت قوة من نوع خاص تعري الانسان وتكشف له حقيقته .. وإذا كان البحر مات حقيقة فلا بد من أن تلقى جبلاً حزيناً ثائراً يكافح كي يبعث البحر ..

بيروت ! انها مدينة ملطخة بالأصباغ لكنها ليست مزيفة، لأن الأصباغ صارت جلد العالم !

سوف تسأل سلمان الشاعر الغريب عن البحر .. لماذا سلمان بالذات ؟ لأن وجهه المضيء كان يعم في الظلمة لما رأيته كوجه نبي .. ولأنه كان ثائر الحزن كأنه وحده شهد مصرع البحر ..

(ليلة جديدة ، وأنا هنا ..

لقد امتصتني المدينة الاخطبوط .. شوارعها الضيقة الحزينة انغrust في أعمامي كالأذرع الجائعة ، وتدققت أنا الى جوفها الذي لا يمتلئ مائعاً نارياً هامداً .. وإذا أنا اختلط بالصرخات والأضواء الشاحبة والحدود الذابلة .. وإذا أنا من بعض النسخ الغامض الحار الذي ينبض في كل مكان ..

اني من رعايا مدينة الورق المقوى والطبول ، نقطة دم نخرة في قلب بيروت ألوب وأتلوى بشراسة ..

حياة أختي صارت حياتي ، صارت أنا .. لكنها راضية .. أما أنا فراضية لأنني أريد أن أبقى هنا ... أسمع أصواتاً أخرى خفية في بيروت .. كأصوات الأنهار الباطنية .. تحت بيروت الورق المقوى ورعاياها ، لا بد من أن تكون هناك بيروت أخرى لما رعاياها ... اسمع هدير أنهار

عميقة الجذور ، غزيرة وغنية كالبحار القديمة . من أجلها وحدها أبقي
هكذا ضالة ممزقة ... من أجلها أظل هنا في المذبح الوحشي حارة الدماء
كضحية راضية .. الآن عرفت كيف يتورد وجه بيروت الشيطاني الطفل ،
وكيف تفوح من فيها رائحة الشيع والدفء .

ما زلت أرقب الأشياء من بعيد رغم أنها تجذبني .. هذا العالم التافه
أنتمي إليه بضعفي ، ولكن ... ما زال هناك شيء آخر .
لم أسقط بعد ولكنني أريد أن أعرف الحقيقة (.....)

لما وقفت أمام المرأة ، بحثت طويلاً عن عينيها حتى وجدتها غارقتين
في بثرين من الكحل . أحست ان قبلة شفتين كهاتين لا بد وان تكون
فائرة وجامدة كقدم دجاجة .

هذا البحر السمج اعتادته هكذا . لو انه يثور مرة ، يرمي بالموج ،
ينثره من بعيد حتى هنا .. على وجهها ... لو أنها تلمس ماء البحر
بيديها .. ماء ثرياً صافياً ، يتفك الطلسم ويبطل سحر الميدوزا وينوب
الحجر الذي استحالت اليه لتعود هي هي ... ولكن ...

(الليلة حفلة ...)

وهذي الجديدة على ظهري ثقيلة كحمل كبير .. كأنها طفولتي كلها
أحملها على ظهري .. والنساء الملونات يرقبنها بتأفف وضجر ، كأنها تنحشر
في حلوقهن أو تزكم أنوفهن .

انطلق في الشارع بحثاً عن رجل جزار أصابعه مقص حاد .. سوف
أقص جديلي لأنني لم أجد البحر .. والعالم الذي كنت أحي من أجله مات
منذ زمن بعيد ، والمدينة التي أتحرك فيها ، مدينة أخني ، ما زلت غريبة
صنها . أتمسكها من وراء أسوارها الزجاجية المخيفة ، أدور حولها ..

اني هجينة ، واللبلة أزف الى بيروت أخوتي وأيمن ، وسوف أواجه
بلايتها بجراً .. يجب أن أنتهي الى شيء ما .. الى أي شيء)
تقرأ اللوحة الكبيرة قبل أن تدفع الباب وتدخل . يرقبها الحساق
باشمئزاز متعجرف . ألم نخجل من السير في الشارع بهذه الجديلة ؟
الطائر الذي يقطن صدرها يتحمل كأنه يحضر .
تجلس في مقعد الخراف . تمد يدها تتحسس الجديلة بحنان كبير ،
كأنها جثة طفلها الأول .

لن تدمع عينها . خبر للأطفال المشوهين أن يموتوا ، أن تحملهم أمهم
الى الجزر ...

(لن أهرب من الحقيقة . أنا التي اخترت ان أرى وان أعرف ..
وبيروت هي دمشق وهي باريس وهي لندن وهي نفوسنا .. لا مقر) .
أصابع الجزر تفرق في الليل الأسود .. تمزقه .. تنهار الحصلات مع
حركاته المفتعلة وهو يدور حولها كالوحش ويدوس أكداش الشعر ..
ويظل يعمل .

اللحظات تمر والطير في أعماقها يحضر ويهلي وريشه يتناثر ويتناثر من
فها وعينيها ويختلط بشعرها المجزور المتناثر ويستقر معه على الأرض ...
الحلاق يضحك ويهتف : كنت تشبهين نساء القرن التاسع عشر ...
انظري الآن كم أصبحت جميلة !

كانت سيارة أختها الفاخرة تنتظرها أمام الباب لما خرجت . ارتمت
فيها وأحست لأول مرة بأن السيارة تلائمها . صارت مساندها أكثر
التصاقاً بساعديها وأكثر حناناً وتجاوياً .

نفس براحة دامعة مؤلة . راحة المرأة بعد الوضع . ألم امرأة وضعت
طفلاً ميتاً ! سوف تكون أكثر التصاقاً ببيروت أختها .. بتخديرها
وأوحالها .. سوف تظل هنا حتى تجد بيروت البحر ..

الوجه الثاني لبيروت الذي نحس انه لا بد وان يوجد ... حتى تتسرب
بطريقة ما الى ذلك النهر النقي الذي تسمعه يهدير تحت الأرض وتحت
الأحوال ..

لن تعود الى أيمن خائبة بزجاجة فارغة أو مليئة بماء وملح فقط ..
سوف تثبت لأيمن أن في بيروت بحراً .. في كل إنسان بحراً .. والمرأة
أيضاً ، من حقها أن تجد بحرها لتجد نفسها ..

الى جانب أختها تسير بالشعر المصفف والثوب الضيق ، كأنها لم تقض
عشرة أعوام في مدرسة داخلية أشبه بالدير .

تدخلان الملهى الضخم . هذا العالم الذي تعيشه مع أختها تحس انها
تجبه وتمشاه ... (أيام وأيام ... لا جديد . اني خائبة ، فاشلة ، لا
أدري كيف أبدأ . لا أدري كيف أعود . لقد قصصت جديلي . جعلتها
جواز مرور الى أسوار مدينة السراب ، قلت لنفسي سوف أحفر في
الرمل حيث السراب فقد أجد الماء لكنني أزداد ضياعاً . أكاد اتخدر قبل
أن أجد شيئاً . بدأت أخاف نفسي . الغرور الذي يدغدغ عنقي ، هذه
العقارب السود التي بدأت تزحف نحو العصفور الغريد في صدري وتحاصره .
اني بطريقة ما انتهي الى هذا العالم البائس .. هذه الأفراح المختلسة ،
هذه الدنان المحرمة هي أرض المهجر . وهذه المرأة التي تتحب في ركن
المكان وتدعي انها تغني ، أولئك الراقصون يرتعدون ويمسكون في هلمهم
حكاية الجنس والوحشة والقلق والأفق التابوت ... وأنا أكاد أجدني جزءاً
من رعب النمو السرطاني والانسحاق الممزق . لن أستطيع الهرب فساحلي
مات منذ عصور بعيدة . قضيتي هي أن أعيش في مدينة السراب كأهلها ..
ليتني أظل أواجه الأشياء دون أن تتسطح ملاحي وتخسر أبعادها) ...

— هل تسمحين بهذه الرقصة ؟

- أجل .

تنهض تستسلم للراعي الغريب .. لماذا لا ترقص ؟ (ان العالم قد تغير ونحن الذين ننتمي الى قرن مات ، نحن الذين نحمل قسماً بادت ، علينا أن نتخلّى عن رمح دون كيشوت ، وعلينا أن نتعلم كيف نجامل ونكذب ونكره وفراقص رجلاً بينما نحلم بأننا بين ذراعي آخر) ...

يغيرون المعزوفة فجأة . لحن التويست الفاجر ينبثق في العيون كأضواء بلا لب . ترقص بحنون كأنها تتحب (البحر الاسفلتي الجديد بحاجة الى بشر من نوع جديد .. يتعايشون مع صخوره ذات الطوابق المتعددة والمصاعد الكهربائية . ورماله الاسفلتية التي افترست في جسدها رماحاً طويلة تندرج عليها حافلات متخمة بالناس والعرق والملل) ...

شاب بتياب الاستحمام يعبر الشرفة حيث الراقصون ، متلصصاً ملتصقاً بالجلدران ، وحييات الماء ما زالت تغطي جسده الرياضي . (يبدو انه من هواة السباحة في الليل) .. تلفت نظرها حييات الماء العالقة بجسده .. أهى ماء حقاً ؟ تساورها رغبة وحشية بالركض وراءه وتحسس الماء على جسده ، وتمريغ وجهها في عضلاته لتتأكد من انها ماء حقاً ...

يحتفي الشاب قبل أن تفعل شيئاً ..

تعود الى التويست ، يعول المغني بشراسة : تويست تويست .

ويضيع الجميع ...

وسهرة جديدة ...

الأنغام تتسلل الى غرفتها من اليهو الفاخر . وهي قد انتهت من ارتداء ثيابها . تدخل أختها : اسرعي فقد جاء المدعوون جميعاً. كلهم في شوق الى رؤيتك .

- سألق بك بعد قليل .

- اسرعي ، سألني هنك سلمان عزمي منذ لحظات .. قال أين ذات الضفائر ؟

- سلمان عزمي ؟

- أجل هل تذكرته .. انه الشاعر الذي ..

- أجل تذكرته . شكراً .

لم تنس وجهه المضيء الذي كان يعوم في الظلمة كوجه نبي . تخرج أختها . تمد يدها الى حقيبتها بحثاً عن قرطبيها . تصطدم يدها بزجاجة العطر الفارغة التي كانت قد أحضرتها معها لتملأها من ماء البحر . تلسعها برودة الزجاج كأن الزجاج معبأ بألف شتاء .. تنحاشي النظر اليها ، تخافها . لن تعود الى دمشق ما دامت هذه الزجاجاة فارغة ... سوف تملأها من البحر ومن بحرها هي ، لا من بحر أختها ...

لكن بحرها مات ، وهي لن تعود ، سوف تنتصر على المزممة بأن تحبها .. سوف تحب بحر أختها !

تهبط الى القاعة . كلهم يلعبونها بنظراته . انهم قبله الأنظار . سلمان يتجه نحو المكان الذي وقفت فيه وحلقة من الشبان التحل تحوم حولها . كانت تبحث عنه ، بطريقة ما تحس ان أمامها كلمات كثيرة لم تقل .

الوجه المضيء يعوم في الظلمة الحمراء كوجه نبي . تنسحب من الحلقة وتتجه نحوه . قريب منها كإله . ترفع اليه وجهها بوداعة . ترى كيف سيبدأ التعارف ؟ تراهما يلتقيان كالغرباء .. كالناس جسيماً .. يهمس كأنهما صديقان منذ زمن بعيد : أين ضيفرتك ؟

شيء عجيب في عينيه ، شيء مطمئن في اتساع صدره ، شيء سريع الفهم في ملامحه القوية ، كالوشم الخفي في ابتسامته المحيية ، لا تدري أي شيء جعلها تحب ببساطة كأنها عرفت واطمأنت اليه منذ زمن بعيد ، معرفة غامضة كالتى تربطها بأبطال الروايات التي تحب ...

— ضفيري تي ؟ هل يهلك حقاً أن تعرف ؟

— أجل ! لماذا تخلصت منها ؟

— لأن البحر مات !

لم يكن المكان فاخراً ، ولكنه كان يعبق بالروائح الانسانية .. بالحزن والعرق والحبز ، بالنعب والشحوب والتحفز ..

ترتمي على مقعدها متعبة ، ويرتمي سلمان الى جانبها ..

— كانت جولة رائعة .. لقد وجدت الوجه الآخر لبيروت .. الوجه ذا الابداد .. الدرب الى البحر ..

تلتهم الموسيقى الصاخبة بقية كلماتها .. يدخل من الباب شاب طويل له ذقن محببة تغطي نصف وجهه ، وسمراء حلوة تستند اليه ..

— هذا أديب كبير ، وتلك صديقته تكذب القصة ... انها يعيشان بحثاً عن قضية .. حزن رهيب يلاحقهما ، انها حزبان لأنهما لم يعرفا البحر ، ولأنهما لا يعرفان انه سبب حزنهما ...

أنت على الأقل .. تعرفين .. لقد احترقت في أسابيع كما لم يحترق في سنوات .. لا تسمعه . عيناها معلقتان بيده التي تناول بها لفافة «كنت» وانتزع (الفيلتر) منها وألصق شفثيه باللفافة العارية .. تنظر اليه متسائلة ..
— انني أكره الحواجز التي تفصل بيني وبين الأشياء .. أريدها كما هي ، مرة ، حقيقية ، لاذعة ...

— لماذا تبتاع إذن لفافاتك من نوع (الكنت) ...

— من أجل الآخرين والأصدقاء ...

— أما زالو يهمونك ؟

— أجل ! كلهم أنا .. أكره المتفكرين الذين يتدخلون من ثقافتهم ذريعة للتخلي عن الروابط التي تشدهم الى الآخرين .. رغم انهم يعيشون

معهم .. يستمدون منهم الاعجاب أو الاهتمام .. أو حتى الكراهية ..
انني أبدأ أنوس بين الأنا المفردة وبينهم فأهرب ، ثم أعود الى الآخرين
لأحب وأحب وأحب ..

بمسك بكأسه ويرمي بمحتوياتها في جوفه ...
- ألا تسكر أحياناً .. وتنسى ؟

- أبدأ..أنا من جيل لم تعد المسكرات لتخدر ضميره .. أضحي الاهتراء
أقوى من أي مخدر..اننا على مفترق الطرق وألف قوة تشدنا الى ألف جهة..
ما نقرأه .. ما اعتدنا عليه .. ما نفكر به .. ما نمارسه بحكم العادة ..
الآخرون .. نحن . العالم الكبير . والبحر الذي يجب أن لا يموت ..
- ولكنه مات .

- لم يمِت . ابحي عنه ، واملائي الزجاجاة لصديقك أيمن . سامهي
معه في إنعاش الموج الحامد .

- انه يعتقد ان لا حق لي إلا برؤية ما يريد لي أن أراه .. سوف
أبقى معك !

نظراته الغامضة الدافئة تحنو على تشردها .. تللمها من الليالي التي
تشتت فيها .. يشدها من يدها الى حيث يرقصون ..
تدفن رأسها في الصدر العريض وتستنشق رائحة المشيم والدخان والحزن،
وعبر أعوامه الأربعين .. ما أحلى رجولة الأربعين !

يسيران ، ويدها التي لم تعد ساذجة مستكنة في كهف يده الكبيرة .
ولم يعد على ظهرها جدبلة تهزج، ولم يعد في صدرها طائر أهوج يصفق ،
والأزقة الضيقة لا أفق فيها ...

- سليمان ..

- ماذا حبيبي ؟

— قررت أن أسافر

— ماذا ؟

— أن أسافر ..

— الى أين ؟

— الى دمشق .

— لماذا ؟

وكانت لماذا تقطر مرارة ودهشة ..

— لأخبر أيمن بما حدث .. بصراحة وصدق .. سأخبره بأنني وجدت
البحر معك ..

— هذا غير صحيح .. لم تجدي البحر بعد ..

— سأجده .. أرجو ذلك ...

— اذا وجدته ، قولي لأيمن بأنك ستشاركين في إحيائه .. ستضمين
اليه موجة جديدة ..

— سوف يسخر .. انه يؤمن بأنني لا أصلح إلا لبعث رائحة الطعام
في المطبخ ..

— قولي له انه مخطيء ، وانه فشل في قتل البلدة الطيبة .. قولي له
لا بد من أن تنبت حتى ولو دفنت ، ستنبت ..

— سأقول له انني عاجزة عن الهرب من وجودي كإنساقه ، وانني
قررت الانضمام الى موكب المنفيين ...

— هذا جيد ..

تعلو وجهها سحابة كآبة ، وتحس بريش الطائر السذي كان يقطن
صدرها يتناثر من فها وعينيها مع كلماتها ...

— سوف تكون مهمتي شاقة .. لقد أقسمت على الوفاء ، وكنت أعني
ذلك لما قلته ..

- لقد أقسمت بأن تحنطي عينيك ، فلا تري بهما إلا ما ترغب عيناه في عكسه .. هذه العلاقة كانت تجسد الجانب المراهق من شقيتكما ..
- ولكنه درس في الجامعة الأمريكية عدة سنوات ..
- أجل ! كان أحد طلابي وأنا أعرفه جيداً .. كان يراقص اخوات أصدقائه ولا يسمح لهم بمراقبة أخته .. انه لا يؤمن بما يفعل ويهرب من مواجهة الأشياء ..
- كانت تحبه ، تلك الفتاة الساذجة ذات الجديدة ..
- وأنت ؟
- أنا ملتصقة بك ، جذوري تعانق جذورك التي تقودها الى حيث الماء .. الى حيث نهر الصفاء يهبط تحت الأرض ، تحت الشوارع المزدحمة .. تحت الأوحال ..
- يجب أن تثبتي ذلك !
- لك ؟
- لنفسك أولاً .. ثم له ..
- كيف ؟
- يجب أن نحمل اليه قليلاً من ماء البحر .. ماء يحرك انت ، يجب أن يكون في عينيك عزم وفي وجهك عمق واصرار ونحفز .. لا يكفي أن يكون في الزجاجة ماء مالح ..
- ماذا تعني ؟
- كان يريد من زواجكما هرباً لك من أشياء يخافها هو ! ..
- ولكنني خائفة حقاً .. خائفة من أن لا أجد البحر .. اقسم لك انني أصبحت أؤمن إيماناً مرعباً بأن البحر هنا مجرد امتداد اسفلي للشوارع .. وإذا كان ماء .. فلن يكون سوى مجرد ماء وملح تفوح منه رائحة السمك المتفسخة الملتصقة بأعشاب بحرية مشوهة النمو وتطفو عليه أخشاب مراكب نخرها الهرم والدود ...

— أريدك جريئة .. ما دمت قادرة على الفهم فأنك ستكونين نعيمة
جداً اذا لم تكوني قادرة على التنفيذ أيضاً ...
— دعنا نذهب معاً ...
— لا تهربي .. ليست القضية أنا وأنت والماء المالح ... انها أنت ،
والعالم ... يريدك مثله خائبة، وبلا بحر !.. عليك الآن أن تعرفي نفسك .
— سأذهب وحدي ...
— أجل ! يجب أن توجدني انعتاقلك بنفسك .. أقرب الناس اليك ،
الحب نفسه عاجز عن أن يمنحك زجاجة من ماء البحر !

(الآن أبدأ بحثي .. ماذا لو لم أجد البحر ؟ ماذا لو غرقت من
البحر ملء زجاجة وظللت أشعر بأنني لم أجد البحر حقاً ؟ هل أعود الى
أبن وأرضي بصدقة بلا نوافذ نعبد فيها وثن خيبتنا ؟ ام انني انسلخت
عن وجودي السابق وقضي الأمر، ولم يعد أمامي إلا أن أنوس بين سورتي
مدينتين ، مدينة مهترئة نيلتني ، ومدينة سورها الأول سراب وسورها
الثاني غابة من الأيدي المتعاسكة المعروفة) ...
سيارة تقف . « سرفيس » رأس بيروت .
تصعد . للمرة الأولى لا تركب سيارة أختها الفخمة ...
هذه الشوارع اللاهثة التي أدمنتها تحبها ، تحب كل حجر فيها ، كل
بصمة دامية على كل جدار ...
« آخر الخط يا شباب » ..
يوقظها صوت السائق . تهبط .
البحر ..

تسير على الرصيف وتطل من عل على البحر .. للمرة الأولى في هذه
الزيارة تراه قريباً هكذا .. قوياً ، جليلاً ، مهيباً كشيوخ وقور ..

تخرج من حقيبة يدها زجاجة العطر الفارغة . (سوف أملأها حالاً
وبنتهي كل شيء . لقد صدمت في البداية وصور لي الوهم ان البحر هنا
لرحة دقها الخبراء بمهارة على الأفق .. ولكن ، كيف أملأها ؟ الرصيف
مرتفع جداً وسوف يكون منظري مضحكاً وأنا أتسلق السور وأهبط
الصخور القليلة لأبلغ البحر وأختلس منه حفنة من ماء .. لست هنا حرة ..
كل عين هنا تخرمني من مجرد القدرة على السير بخطوات عفوية نحو
البحر .. سوف يظن المارة انني مجنونة . ما زلت أخافهم . ما زال يعني
ما يمكن أن يظنوا ، من الخير لي ان أبحث عن مكان آخر مناسب .
سوف أسير قليلاً ، فقد أجِد لنفسي مخرجاً) .

تسير ويدها ملصقة بالافريز الأسود وعيناها على البحر ، وراء السور
الأسود .. (لا ريب في أن أؤمن قد تحذاني دون أن يفهم ما يقول .
أم تراه كان يعرف ؟) ...

تسير وتسير .. لا منفذ على البحر . لن تستطيع الحصول على حفنة
من البحر ما لم تعرض نفسها لأن تكون أضحوكة للمدينة ، للعابرين ..
(ما دمت أخاف الآخرين دون أن يكون هنالك ما يدعو الى ذلك فإنني
لن أحصل على زجاجة من ماء البحر) .

تمسح عرقاً حاراً كالدم عن جبينها وعن عينيها ..

(لماذا يسورون البحر هكذا ؟) !

زمن طويل مضى وهي تسير على الشاطئ المرتفع تارة ، والمسور بقضبان
سود تارة أخرى .. زمن طويل مضى وهي تروح وتجيء ، وهي الآن
متعبة تحس انها ضئيلة وتلك الأبنية الكبرى تواجهها فاعرة الأفواه كأنها
تصرخ بها : البحر لنا أيتها السارقة ..
- ولكنني أريد نصيبي من البحر !

هناك قوة تحارب انعتاقنا . الآخرون لن يمنحوني زجاجة بحر . لن
أتحاذل .

المسيح العسكري .

تقترب من الجندي الذي يقف أمام الباب . (لماذا لا أدخل الى أحد
المسابيح وأتخلص من مشكلة السور الذي يطوقون به البحر هنا ؟) ..
الجندي يعترض طريقها « بذاقتك ؟ »

— اسمح لي بالدخول .

— أين بذاقتك ؟

— لماذا ؟

— ممنوع الدخول بلا بطاقة .

— لماذا ؟ ألا يدخل الناس الى هنا ؟

— يدخلون باشتراك .. أو ببطاقة من (....)

— ولكنني أريد أن أملاً هذه الزجاجة من ماء البحر .. فقط .

— لا يصدقها ، تزعمه الكذبة الساذجة : ممنوع .

— قليلاً من ماء البحر الذي تحرسه .

— ممنوع .

— سأدفع ثمنها .

— ممنوع !

تبتعد بينما يدير الجندي وجهه بقرف مدمماً : بنات اليوم المجنونات..

ثم يضم بندقيته ، ويروح ويجيء في حراسة البحر .. البحر للذين
يحملون البطاقات . ترى كيف تحصل فتاة بلا بطاقة على زجاجة من ماء
البحر ؟

(لماذا يسورون البحر هكذا في بيروت ؟ بحري الذي أبحث عنه لا
يمكن أن يكون مسوراً .. انه بلا حدود .

لا أريد ان املاً مجرد زجاجة من الماء المالح أعود بها الى ايمن وي
عيني نظرة منكسرة . بحر أخني موجود في أي مكان : قليل من الماء ،
ملعقة من الملح ! اريد ان املاً الزجاجة من بحري .. من بحر سلمان ..
من بحر المتفين المزرقي بأحزانهم ، الهائج بثوراتهم ، بأساطيرهم ، وقيمهم ..
لماذا منعتي الجندي من الدخول وأحالي الى السيد (...) ؟ هل قسموا
البحر أيضاً الى اقطاعات وممتلكات ؟ هل غرسوا راياتهم في جثة البحر
وقسموه وسيجوه ؟

قليلاً من ماء البحر ! كيف ؟
أسهل عليك أن تدخل الى أحد المخازن كالفيتات المحترقات وتشترى
له ربطة عنق ، قلم حبر ، علبة لفافات ذهبية ، من أن تملأ هذه
الزجاجة بماء بحر حقيقي وتمليها كأية فتاة لها بحر !

« فندق الريفييرا » منتصب وراءها . يرقب وقفها المتعبة على الرصيف ،
والبحر في الأسفل يلعق أقدام الصخور بذل ، يصفعها بحقد ، والافريز
الأسود حار يلمس يديها اللتين استندت بهما اليه ...
شبان عراة في الأسفل يرطبون بالماء أجسادهم . لماذا لا تنادي أحدهم
وترجو منه أن يملأ الزجاجة لها ؟

تصرخ وتلوح بيدها دون أن تأبه للعابر الذي يحدّق اليها بذهول :
يا شاب .. يا شاب .. أنت .. أجل أنت ..
يلتفتون اليها . ما زالت تلوح بيدها كسجينة في جزيرة . أحد الشبان
يضعده الصخور نحوها . انه يقترب . سوف تنتهي الأزمة . بطريقة ما
تشعر انها تخدع نفسها !

يقف أمامها فتي قوي شبه عار وقد لوحته الشمس واكسبت وجهه
لوناً حاراً . وازداد وجهه حرارة وهو يتأملها ويسأل بدهشة : نعم .

— أريد أن أطلب منك طلباً .
بحرارة يجيب وهو يتأمل وجهها الفاتن : اطلبي أي شيء ..
— أريد ... أريد قليلاً من ماء البحر ...
— فقط يا حلوة ؟
تجاهل يا « حلوة » ...
— أرجوك ، املأ لي هذه الزجاجاة من ماء البحر .
فتاة تتحرش بعراة البحر !.. لا بأس ، سوف يستجيب للمغازلة
الطريفة ..
— سأملأها لك من دموعي .. من دمي .
— أرجوك بسرعة ..
— انتظري ، سوف أرتدي ثيابي وأجيء بعد لحظات .
يركض ليرتدي ثيابه ، ويذكر الليرة اليتيمة في جيبه: سوف يتدبر
الأمر على أية حال (اسلوبها في التحرش مبتكر ووجهها جميل وبريء..
إنها مبتدئة رائعة) .. يركض ، والزجاجاة ما زالت في يدها فارغة ،
وصوت مالح كالدموع يهمس في صدرها : الآخرون لا يمكن أن يمنحوا
البحر ... لا أحد يستطيع أن يمنحني البحر .
يخرج إليها بعد دقائق ، يرى أنها اختفت .

لا ريب في أنها مشت زمناً طويلاً دون أن تدري . قدمها تثنان
كعجلات صدف مستسلمة لقائد أهوج . الخليج رائع . رأسها ثقيل ،
لم تعد تقوى على حمله . الشمس وردة البحر الوحشية ، التي تنفتح كل
ليلة في أحضانها ، تملأها غيرة وحسداً .. تلك الشمس السعيدة التي تنغرس
حتى أعماق البحر .. إنها وحدها تعرف الحقيقة وتمحرق كل من يسعى
إليها ، كل من يحاول كشف أسرار عشيقها البحر ..
طوال النهار كانت تلهب رأسها لتبعدها عن البحر .. لكنها الآن

ترحل الى أعماقه حيث تأوي وتستريح في كهوف عجيبة الألوان .. وهي
لن تستسلم، ستظل تبحث حتى تدرك كنه البحر الذي تحميه الجنية الشمس.

لا تدري كم من الوقت مضى وهي في جلستها هذه .. كل ما تعرفه
أنها لما فتحت عينيها ، رأت أن الشمس لم تعد موجودة ، والسماء ليست
مظلمة تماماً بعد ، والتمر قد تسلل من مكان ما بمضغ العتمة والريح ..
ووسط نجيب الأمواج هنالك مصباح قوي يضيء ويقرب من الشاطئ ..
يلوح ليقلبتها المتعبة كالرؤيا بينا القارب يهتز وشبح رجل يتعثر فيه ..
المصباح ينوس في يد الرجل العجوز الذي هبط منه ..
تراه من بعيد يسير بطيئاً متعباً ، يقرب . تنهض نحوه راكضة ..
تتعثر فجأة . لم تكن تدري أنها منهكة هكذا ..
قريباً منه تقف . تراه ، تستنشق ، تذوقه . انه عجوز غريب ،
لحيته من أعشاب البحر ، الملح والصقيع في أهدابه .

— ماذا تريدن ؟

صوته متقطع كصوت المد والجزر . تحس برغبة عميقة للبكاء أمام
هذا الرجل العتيق العتيق ، ككهف عايش البحر طيلة عصور .
لا ريب في انه يفهمها دون أن تفسر ، دون أن تشرح ماذا تعني
بالنسبة اليها زجاجة من ماء البحر الحقيقي ، بحر ها .
— أريد قليلاً من ماء البحر ، أرجوك ، املاً لي هذه الزجاجة .
أمسك بالزجاجة بين أصابعه التي تبدو كسلاميات عتيقة ، كعظام
أسماك أثرية في شاطئ مهجور .

لم يبد على وجهه أية دهشة .. ببساطة ، وبشيء من السرور الخفي
حملها واتجه نحو الماء، وعاد بها بعد لحظات مملوءة بماء البحر المالح العذب.
وبلا كلمة ، حملت الزجاجة مهدودة متعبة ، وعلائم نصر منكسر
تضيء عينيها فتبدو شاحبة دامعة كشوارع بيروت قبل الفجر .

ولما وقفت على أسفلت الشارع العام ، تذكرت ملايين الكلمات التي كانت تود أن تقولها للشيخ البحر، والتفتت إليه لتودع في نظرتها الأخيرة زخم كلمات كثيرة لم تقل ، ولكنها لم تجده !
تمت : لعله استلقى على الرمال ليستريح ، لا ريب في انه صياد عجوز متعب ..

تحس حذساً مكثفاً عميقاً الى درجة الايمان بأنها لو عادت لتحدثه فلن تجده أبداً .. المصباح قد اختفى .. والقارب ... ولم يبق إلا سؤال كبير يفرض نفسه .. ترى هل يمنح البحر نفسه ؟ هل يمنح بحرهما نفسه ؟ وحتى لو رق كما رق الليلة ومنح نفسه ، ترانا قادرين على الأخذ إذا لم نكن في مستوى العطاء ؟

(كيف ، كيف ، كيف أبداً ... حتى الآن لم أجِد النقطة التي يجب أن أنطلق منها . انها ليست الحب ، ولا مساعدة الآخرين ، ولا الاستجداء ، ولا العناد الأعمى ... هنالك شيء ما لم أجده حتى الآن .. أين ؟ وقد نبشت الأشياء حولي .. أين) ؟

...

الليل ، والشرقة المفتوحة ..

زجاجة من ماء البحر المالح أمامها على المنضدة . لقد أعدت حقيبتها، وبعد ساعات يعود النهار وترحل ، وبعد ساعات تحمل الزجاجة الى أين. لا تدري لماذا تحس بأنها لن تجرؤ على أن تقول شيئاً. تحس بانكسار مفاجع كهذا الليل العميق .. انها لم تجد البحر حقاً .. لم تجد البحر .. فلتعترف : رغم ان البحر أبدى استعداداه ومنحها نفسه ولكنها عاجزة عن الأخذ ، لأنها ... لا تدري لماذا ... فلتعترف ... هذه الزجاجة أمامها مجرد ماء وملح ، كبحر أختها .. ليست مزروقة بأحزانها، وليست هائجة بثوراتها وليست مكثفة بقيمتها وأساطيرها ..

ماذا تفعل ؟ سوف تكتب لأيمن رسالة تعرف فيها بالفشل . لن
تذهب . لن نخادع ..

تستعرض حوادث يومها المحموم .. ماذا فعلت ؟
(ترى كيف تحصل فتاة بلا بطاقة على زجاجة من ماء البحر ؟
الآخرون لا يبالون .. لا أحد يستطيع أن يمنحني البحر .. البحر لا يمنح
نفسه حتى ولو أراد .. ما دمت أخاف الآخرين دون أن يكون هنالك
ما يدعو الى ذلك فلاني لن أحصل على زجاجة من ماء البحر .. ماذا
أصنع .. ماذا يا سلمان .. يا سلمان) ...
ونحس بسلمان قريباً منها، بوجهه المضيء كوجه نبي ، بصوته الغامض
الآمر كقدر ..

يا سلمان ، اني استنشقتك في الليل ، في نسيم البحر المالح .. ماذا
أفعل ؟ تأوي الى فراشها ، متعبة ، متعبة ، كأن الشمس ما زالت تلهب
رأسها بالحصى .. ليتني أنام سريعاً لأستريح .

تسير وتسير عارية القدمين في دروب طويلة من الحصى والماء البارد
على شاطئ بحر .. تريد أن تقترب من الماء وتشرب لكن عشرات العيون
تأملها بسخرية ، عشرات الأصابع تشير اليها باحتقار .. وهي تخاف
شبكة الأصابع الساخرة ، وهي ترتعد أمام النظرات العنكبوتية المستنكرة.
تتسمر في مكانها . يغيب البحر ويتحول الى مستنقعات تفور بالحيتان
والتماسيح وبموسيقى من عويل . الشمس تقترب وتقترب . العرق يسبح
منها .. الشمس تكاد تحرقها، تلتصق بوجهها . بعينها . تصرخ . تسقط
وهي تهتف : يا سلمان . أيمن يضحك شامتاً . تسمع ضحكته من كل
مكان دون أن تراه . ضحكاته تنبع من أعضائها الخائبة . شفتاه تفتحان
كالقروح على يديها وساعديها وتفهقها وتصاب أعضاؤها برعشات جسد
يتعذب بالكهرباء ، تسقط فجأة والشلل يستولي عليها . سلمان يريد أن
يلتفت لكنه ملجوم كالحصان لا يملك إلا أن يسير . قف يا سلمان .

الشفاه الساخرة تفتتح كالكرواح الدامية في جسدها كله . ضحكة أيمن الوحشية تملأ المكان كأفراح عملاق شرير . يا سلمان .. ريش الطائر يتطاير من فمها من عينيها ، من فتحتي منخريها .. يا سلمان .. ينحشر الريش في حلقها ، جديلة فاحة تلتف حول عنقها وتشدها الى الأرض ، الى الأرض ، الى الأرض ، الى حيث هي أفعى من ملايين الأفاعي في المستنقع الذي كان بحراً .. يا سلمان .. يا سلمان » ..

تفتح عينيها وتقف وبقطة حمراء تتألق في عينيها . تتقدم من المنضدة حيث أدوات الكتابة وزجاجة العطر وماء البحر المزعم . تضرب الزجاجية بيدها . تنقلب . ينسكب الماء منها بسرعة ويهرع نحو الورق النشاف .. ورقة النشاف تمتص البحر بشراهة ، بشراهة .. لحظات ولم يتبقى من الماء شيء .

لقد جف البحر لما أخافتني نظراتهم .. الآن ، الآن فقط عرفت كيف أبدأ .. ومن أين يجب أن نبدأ جميعاً ..

- الى أين ؟ السيارة تنتظرك . هل غبرت رأيك ؟
- شكراً سأخرج وحدي قليلاً ، وحيناً أعود سأرحل فوراً الى دمشق .
- سوف ينتظرك السائق على أية حال ، تستطيعين الرحيل متى شئت .
- شكراً أيتها الأخت (العزيزة) .. وتهمس لنفسها (المسكينة) ..
- هل قضيت البارحة ليلة هادئة ؟
- لماذا ؟
- سمعتك تصرخين .
- أنا ؟
- أجل ! كنت تقولين شيئاً لم أفهمه، ولكن اسم سلمان كان واضحاً..
- كنت تنادينه ..

— هذا غريب !

تخرج من الدار . سيرفيس رأس بيروت . زجاجة فارغة في حقيبة يدها الصغيرة .. الرصيف المرتفع . البحر خلف السور الأسود ، البحر المهجور المزرق بالأحزان ، الكثيف بالقيم والأساطير ..

أمام السور مجموعة من الشبان والفتيات المدللات كسياراتهم الممتدة على طول الرصيف .. تقترب منهم ومن السور وتلحظ أن نظراتهم تنزلق عليها في كثير من اللامبالاة .

تقف أمام السور وكأنه السور الذي يفصل بين حياتين ، بين مرحلتين ، وتقفز فوقه ، تجتازه نحو الناحية الأخرى ، ناحية البحر ، وتسير مرفوعة الرأس .

لا تلتفت ، لا يهمها فضولهم ، تحس بنظراتهم جميعاً تلتقي على ظهرها كالنبال المسمومة ، لا تلتفت ، تقفز على الصخور بخفة وتنحدر نحو الماء ببساطة ، الزجاجاة في يدها ، قبل أن تملأ الزجاجاة بالماء تلتفت اليهم وقد تفجر في عينيها بريق تحد عميق الجذور ..

وتراهم جميعاً ينظرون إليها ساخرين ، يتحدثون بصوت مرتفع ويشيرون بأيديهم ، لا تبالي ، تحس أن العالم الخارجي لم يعد كل شيء ، لم يعد يفرض عليها قوانينه بأجمعها ، لقد قررت أن تفهم الأشياء ، أن تختار الأشياء التي تخضع لها .

لماذا تحجل ما دامت لا تفعل شيئاً تحس بفطرتها ونظرتها المعزولة عن المؤثرات الخارجية انه محجل؟ ألمجرد ان الناس يتدخلون في حياتها بنظراتهم البله عليها أن تحجل ؟

تملأ الزجاجاة بالماء .. من البداية كان علي ان املأها بنفسي ، بيدي ، بلا محجل كان علي ان أقفز السور ما دمت لا أقرف شيئاً يشوه انساني كما أراها أنا ..

تخرج الزجاجاة من الماء بعد لحظات والقطرات الرائعة ما زالت تبللها وتبلل يدها حتى الرسغ ، وتعود نحو السور والرصيف مرفوعة الرأس تواجه النظرات الفضولية ، والتعليقات الساخرة بكثير من الاعتزاز . (بيدي أنا كان علي أن أخلق بحري ، أن أكون لإنسانة جديدة به) .. تصل الى السور وتقفز من جديد الى الرصيف .. تمر بهم سعيلا ، لامبالية . (لقد اقتلعت عيونكم المدقوقة في وجهي ، وبصقت كلماتكم الملصقة على لساني ، وتحررت من آليتي في الإحساس ، من ردود الفعل المسبقة الجماعية .. لقد ولدت اليوم .. الآن) ...

تسير وتعليقاتهم الساخرة تزداد . لقد وجدوا مادة للضحك : وتضحك . لماذا يسخرون الآن ؟ ألم يكن منظري وأنا أقفز كحيوان غريب وأرقص التويست أكثر سخافة وبلاهة مما هو الآن ؟ ألم يكن وجهي بلا تعبير وجسدي بلا ضابط ؟ أما كنت أمين انساني ساعتها .. لماذا لم يسخروا وقتها ؟

الآن ، الآن فقط تعود الى دمشق .. ماذا تقول لأمين ؟ ستقول له كل شيء ، ستقول له أن لا بحر في بيروت للذين لا بحر في نفوسهم .. أما هي، وسلطان فقد وجدا درهما .. الطائر ؟ مات مع الضفيرة والخوف والعقل الذي يتبنى وجهات نظر الآخرين دون أن يفكر ...

وتسير ، بيروت، يا حلوة ، يا حزينة ، يا وجهك الملطخ بالاصباغ، إست مزيفة ، لكن الاصباغ صارت جلد العالم ، ولست شريرة ، لأنك دمشق وباريس والصين وكل مكان .. ولأنك من نفوسنا .. ويوم نجد جميعاً بحرنا يعود اليك بحرك .

ويبيكي الرقم ٢١٦

كنغمة ناي خافتة كانت تنساب الى جانبه مخدرة مثبته .. وهو يسير
كدمية حدّ صانع الدمى خط سيرها .. انه مبعوث الحكومة الى هاواي
لمدة شهر . انقضت مدته . قام بمهمته . وعليه الآن أن يركب الطائرة .
المقعد الثاني الى اليمين . يهبط في باريس . ينام ليلة في فندق - البارون -
الغرفة رقم ٢١٦ . يتابع رحلته الى مدينته . يعود الى داره . يرسو في
السرير قرب زوجته .

الخادم الذي يسير أمامه وقد حمل حقائبه يقف . يضعها على الأرض
الى جانب حقائب سائر المسافرين ثم يحرك ذراعيه بحرية بحسد عليها ...
آه لو أحرر ذراعي مرة واحدة لأضمها الى صدري وأغرسها فيه
أبدًا ... ، يعرف انها هي أيضاً تتمزق بصمت .. لكنه يعرف أيضاً
انها تؤمن إيماناً عيقاً بأن شيئاً رائعاً سوف ينبثق من ألمها ... ان لها من
أساطيرها ما يحميها ..

وهو يجب نمردها المستسلم ، ويجب قوتها المستكينه .. لماذا اختارتها
الحكومة لمرافقه ؟ لماذا حملوها طوق الياسمين وتركوها تلف به عنقه ساعة
وصوله الى بلادهم ؟ يا لعنة الطوق الحبيب .

.. لماذا قبلته ؟ لماذا رافقته طوال الشهر ؟ أليس في مدينتهم
سكرتير رجل فظ يرافقه عوضاً عنها ؟ آه كم أحب أساطيرها وأغانيتها
وأسلوبها الانساني الغريب في التفكير !

انها تهمس ، تذكره بنسيم الشاطئ .. ما أعذب لغتها الانكليزية :
« أحقاً انك سترحل ! »
أهدابه ندية .. « أجل » .

تضحك . ضحكها الخافتة الحزينة التي تذكره بظلال الآلهة في زوايا
المعابد . تهتف به : « لماذا نبكي من أجل كلمة لم نقلها ، وساعة لم
نعشها ، ومدينة لم نعرفها ؟ »

هذه الفيلسوفة الصغيرة يعرف ماذا تريد أن تقول .. كان حتى يوم
التقاها يؤمن بأن أجمل الكلمات هي تلك التي لم يقلها بعد ، وأجمل
الساعات هي تلك التي لم يعيشها بعد ، أما الآن ... فهو يريد الواقع ..
يريد أن يحقق واقعاً يؤمن بأنه يرضيه .

تهتف به من جديد : سوف تنبت زهرة حمراء في الجبل .. زهرة
« غردوشكا » جديدة ... هل تذكر ؟

لا يجب . انه لا يستطيع الا أن يذكر كل شيء .. حكايتها وشم
من جمر في أعماقه .

هدير الطائرات لن يصدقه . لن يصدق انه سيرحل . محرقاتها التي
بدأت تدور بوحشية تحترق دماغه في كل دورة . لن يصدق انه سيفارق
عبر شعرها . لن يترك يدها الصغيرة تنزلق من بين أصابعه . المضيئة
تحته على الصعود . سوف تمضي الطائرة وتحلقه . لن ينتزع نفسه من ليل
عينيه المنمنم .. ما معنى ان يأتي إذا كان لا يملك الا أن يمضي ؟ انه
يريد أن يبقى هنا في الشاطئ المسحور .. يختار أرضاً صغيرة عند الشاطئ
وبيتني كوخاً له ولها .. ويجدل لها الليل والقمر حكايا عذبة مخدرة .. ما
معنى أن يكون إذا كان لا يملك وجوده ؟ جاء بعض المسؤولين يودعونه .
يصافحهم . وجهها الأسمر يغيب في ضباب رمادية . طوق الياسمين خلفته
في عنقه . يا لوحشية أن يكون موظفاً كبيراً .

...

في المقعد الثاني على اليمين يجلس . الطائفة تدين بعذبه . يطير على علو منخفض فوق الشاطئ الذي أحالته زهور الـ «غردوشكا» البيض ناصعاً كجنتح حامة . يطير على علو مرتفع فوق الجبل المجاور الذي أحالته زهور الـ «غردوشكا» الحمر دامياً .. أبداً لن تنمو زهرة حمراء قرب زهرة بيضاء .. هكذا خبرته ذات مرة كأنها تنتحب .
مرة ...

كانا يطيران فراشتين بين تلك الأزاهير ... قطف زهرة وأخذ يتأملها .. لاحظ أن وريقاتها التوجيه ليست كاملة . أن كل واحدة هي نصف وريقة فقدت نصفها الأيمن .. أنها زهرة معذبة .. نصف زهرة .. عبت بها يد شريرة وتركتها تندب نصفها الذي لن يكون والذي ينمو في الجبل المقابل ...

وتطلع الى الجبل المغطى بالأزاهير الحمر ثم استكانت نظراته في ليل عينيه المنم بينا هي تروي له الاسطورة .. اسطورة الغردوشكا ...
في سالف العصور والأزمان ...

عاش في جزيرتنا ملك له ابن مشهور بالطيبة والقوة .. وأحب ولي العهد هذا فتاة من فتيات الشعب اسمها «غردوشكا» لكن تقاليد دهور وقفت بينها .. فحزن الأمير حزناً شديداً وذوى ثم مات .. ودفن في الشاطئ ، مسرح هوامها ، حسب وصيته ، وبعد موته بأيام ماتت «غردوشكا» الصغيرة .. ودفنت بعيداً عنه في الجبل ... وبعد موتهما بأيام هبت عاصفة من عويل وأمطار وصواعق .. ولما انجلى ، وخرج الناس من بيوتهم ، وجدوا أن أزاهير بيضاء قد غطت الشاطئ . تقابلها أزاهير حمر مماثلة في الجبل المقابل .. وان تويجات الأزاهير البيض قد فقدت نصفها الأيمن وان أزاهير الجبل قد فقدت نصفها الأيسر .. ولم يكن بين الزهور البيض زهرة حمراء واحدة !
ويومها .. قطفنا «غردوشكا» حمراء من الجبل ، وغردوشكا بيضاء

من الشاطئ، وحلا معها زهرة واحدة كاملة نصفها أحمر ونصفها أبيض ..
وكان في عينيها حزن مفاجئ غريب .. أنها تدرك أكثر منه أنها لن
يستطيعا محاربة المقعد الثاني الى اليمين في الطائرة ، والغرفة رقم ٢١٦ في
باريس ، بأسطورة !

...

باريس وفندق البارون ... والغرفة ٢١٦ .. الفراش الأبيض الذي
يضمه أسود . والجدار الأزرق أسود . والحمرة الصهباء سوداء . ضحكات
الغانية في الغرفة المجاورة سوداء . صوت أجراس الكنيسة أسود . الليل
الأسود أسود ... وهو أسود .. لماذا عشق السواد خطأً أبيض اعترض
حياته مرة ؟ يكاد يمتشق . أين عبر شعرها ؟ المدينة الصاخبة ميتة ..
سوف يفرع الجرس ليتأكد من أن في المدينة سواء . سوف يطلب كأس
ماء . سوف يسأل عن الساعة .. عن أي شيء . يرفع سماعة الهاتف ..
يحببه صوت خشن : تريد ماء ؟ من أنت ؟
— أنا ... أنا لا أحد ... أنا الغرفة ٢١٦ !

...

الى جانب زوجته عاد يرسو .. مركباً صديقاً أنهكته المجاديف الآمرة.
وعند نافذة غرفته ، حيث ينسكب ضجيج الشارع وتهاوت أضواء
الاعلانات ، رأى أن زهرة بيضاء تولد ... وان زهرة حمراء ، نصف
زهرة، تنبت في تلك اللحظة بالذات من صخرة الجبل البعيد في هاواي ..
ويكي الرقم ٢١٦ ...

ما كان أحلى الكلمات التي لم يقلها .. والساعات التي لم يعشها ...
غداً يرحل ثانية الى مكان آخر .. ويمنحونه رقماً جديداً ... متى يتحرر
المركب من مجاديفه ؟

... ويكي الرقم ٢١٦ .

فهرست

٥	الإهداء
٧	نداء السفينة
١٧	لعنة اللحم الأسمر
٢٥	أنساب رجل وحيد
٧١	غجرية بلا مرفأ
٨٣	القييد والتابوت
٩٥	الاصبع السادسة
١٠٧	الرجل ذو الهاتفين
١٢١	هواية متعبة
١٢٧	لا بحر في بيروت
١٥٩	ويكي الرقم ٢١٦



قصص وروايات

عيناك قدرتي (قصص) - (الطبعة العاشرة)

لا بحر في بيروت (قصص) - (الطبعة الثامنة)

ليل الغرباء (قصص) - (الطبعة الثامنة)

رحيل المرافئ القديمة (قصص) - (الطبعة السابعة)

بيروت ٧٥ (رواية) - (الطبعة الخامسة)

كوابيس بيروت (رواية) - (الطبعة السادسة)

ليلة المليار (رواية) - (الطبعة الثانية)

حب (الطبعة التاسعة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة التاسعة)

غربة تحت الصفرة (الطبعة الأولى)

الأعماق المحتلة (الطبعة الأولى)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثانية)



الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) - (الطبعة الخامسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الرابعة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثانية)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الأولى)



□ رابعة: رابعة بأكثر من واحد
- رابعة رابعة

□ عادة المراكب الدم من بلاد سارة من
المدينين الذين استطاعوا أن يواكبوا
عطاءهم التي استطاعوا بها
والسبح الشافي وأخيراً السبب في أن
عادة المراكب أصبحت بحمة استطاع في
سرا الأذن المراكب إلى أنها لا تتبدل إلا
أو تركت بوجه بار سبب في أن
ت حقيقته بحقيقة رابعة وأخيراً
ومرستها الأربعة

□ عادة: فكم رأى ذلك السبح
الأصغر: مع الخيال فكان من أصغر
الصالحات في الدنيا العبرين الحديت
وقلم تطلق الحياة الصداقة فيه فلا
يعرف الرقيب إليه سبباً

□ عادة: فكم رأى ذلك السبح
الأصغر: مع الخيال فكان من أصغر
الصالحات في الدنيا العبرين الحديت
وقلم تطلق الحياة الصداقة فيه فلا
يعرف الرقيب إليه سبباً

□ عادة: فكم رأى ذلك السبح
الأصغر: مع الخيال فكان من أصغر
الصالحات في الدنيا العبرين الحديت
وقلم تطلق الحياة الصداقة فيه فلا
يعرف الرقيب إليه سبباً

□ رابعة: رابعة بأكثر من واحد
- رابعة رابعة